حُقُوقُ الصَّدِيْقِ

وكَيْفَ تَتَعَامَلُ مَعَهُ

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

حُقُوقُ الصَّدِيْقِ
وكَيْفَ تَتَعَامَلُ مَعَهُ

تأليف
أحمد بن ناصر الطيار

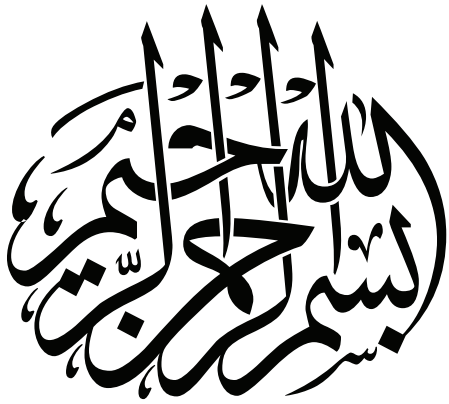
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أهمية الصديق

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين. **أما بعد:**

فمن المعلوم أنَّ الله تعالى جعل مِن حكمته في عباده أنْ يَأْنَسَ بعضُهم مع بَعض، فلا يستطيع أحدٌ أنْ يعيش في عزلةٍ وحده، فاتخذ الناسُ الأصدقاء، واصْطفى الكثيرُ منهمُ الأخِلَّاء، فترتَّبَ على ذلك مصالحُ كثيرة، وفوائدُ جمَّة.

ومع ذلك، فقد كثرُ الخلاف بين الأصدقاء، وحصل بين كثيرٍ منهمُ التفرُّقُ والعداء، وكلُّ ذلك بسبب جهلهم بحقوق الصديق، وما له وما عليه.

وليستِ الصَّداقةُ بكثرة الْمُجالسات، ولا بتبادل الرسائل والضَّحَكات، فهذه صداقةٌ ما إنْ يأتيها مُكَدِّرٌ إلا بدَّدها، ولا موقفٌ حَرِجٌ إلا كشف عَوَرَها، وأظهر زَبَدَها وغُثاءها.

ولسانُ حالِ الكثير منهم:

وأنت أخي ما لم تكن لي حاجةٌ ... فإنْ عرضَتْ أيقنتُ أن لا أخَا لِيَا

وصدق حسان بن ثابت رضي الله عنه حين قال[١]:

أَخِـلّاءُ الـرّخـاءِ هُـمُ كـثـيـرٌ ... ولـكـنْ فـي الْـبَـلاءِ هُـمُ قـلـيـلُ
فـلا يَـغْـرُرْكَ خُـلّـةُ مَـنْ تـؤاخـي ... فـمـا لَـكَ عِـنْـدَ نـائـبـة خَـلـيـلُ
وكُـلُّ أخ يَـقـولُ أنـا وَفِـيٌّ ... ولـكِـنْ لـيْـسَ يـفْـعَـلُ مَـا يَـقـولُ
سِـوَى خِـلٍّ لَـهُ حَـسَـبٌ وَدِيـنٌ ... فـذاك لـمـا يَـقـولُ هُـو الـفَـعُـولُ

أيُّ معنىً للصداقة إذا لم تُشاركْ صديقك عند حاجته مالَك، وتُصفِّ له ودَّك، وتُؤثرْه على بعض محابِّك وحاجاتك.

فالصداقةُ لها تبعاتٌ ولوازم كثيرة، وواجباتٌ صعبة، لا يقوم بحقِّها إلا الأوفياء، حتى إنَّ بعضهم يعتبرها نوعًا من الرقّ.

كتب أحدُهم إلى عبد الله بن المقفع يلتمس معاقدة الإخاء، والاجتماع على المخالصة والصفاء، لكنَّه ما أجابه، ولا ردَّ على خِطابه، فحزن لِذلك، وكتب إليه يَعْتَبُ عليه، فكتب له عبد الله: إنَّ الإخاء رق، وكرهت أن أُمَلِّكَك رِقِّيَ قَبْلَ أنْ أعرف حُسن مَلَكَتِكَ[٢].

واعلم أنَّك إذا اتَّخذت أحدًا صديقًا، واعترفت بصداقته: فقد وجب عليك أنْ تلتزم بحقوقه عليك، وواجباته اللَّازمةِ عليك، فإنْ قُمت بها فقد وَفَّيت وأحسنت، وإن لم تقم بها وتقاعَسْتَ عنها: فدعواك بأنك صديقٌ له دعوى باطلة، ومقولةٌ كاذبة.

وإنَّ هذا الموضوع من أهم ما يحتاجه الناس والأقارب والأصدقاء، فكثيرٌ منهم لا يعرف حقَّ صديقه، وكثيرٌ منهم يظن الصداقة ما هي إلا تسليةٌ مع الصديق، وقضاءُ وقتٍ معه، وما أكثر ما تفرق

(١) ديوان حسان، ص١٨٢.
(٢) الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، ص٤٥.

الأصدقاء، وتهاجر الأخلاء بسبب أمورٍ تافهةٍ لو صَدَقتْ صداقتُهم لَمَا حصل بينَهُم ما حصل.

وقد بحثتُ عن كتابٍ لا بالطويل الْمُمل، ولا بالْمُختصر المخل، يعتني بحقوق الصديق، وآداب مُعاشرته، وبيان حقيقته، يُبيِّنُ بأدق التفاصيل، دون إسهابٍ وتطويل، لا يَدَعُ شاذَّةً ولا فاذَّة إلا ذكرها، ولا أمرًا يحتاجه الأصدقاءُ إلا بيَّنها، فلم أجد ـ حسب اطلاعي ـ ما يُوفي بهذا الغرض الذي لأجله ألفت الكتاب، بل أكثرُها نقولاتٌ عن الحكماء والأدباء، ونصائحُ عامةٍ، دون الدخول في أدقّ التفاصيل، ودعمِها بالتأصيلِ والتمثيل، فاسْتعنت الله تعالى بتأليف هذا الكتاب.

وقد تأمّلتُ في صُنوف الأصدقاء والأخلاء، فما من عيبٍ أو سلوكٍ خاطئٍ فيْ أحدهم إلا حذَّرتُ منه، وما من خلقٍ أو سلوكٍ سديدٍ رأيتُه فيهم إلا بيَّنتُه وأثنيتُ عليه، وعضدْتُّ كلامي بأدلة الكتاب والسُّنَّة، وأقوال وأشعار العرب والمسلمين والحكماء.

ثم قُمتُ بتوزيعِ نسخٍ كثيرةٍ منه على مختلف الطبقات من الناس، فأعطيت طلاب العلم والمشايخ والأدباء، وأعطيتُ بعض العوام من أهل الخبرة والذوق في الصداقة، وأعطيت الصغير والكبير؛ والنساءَ والرجال، فاسْتحسنوا ما قرَّرتُه وذكرتُه.

واسْتفدتُّ منهم كثيرًا ـ جزاهم الله عني خيرًا ـ، وزاد بعضُهم حقوقًا لم تخطر ببالي فأضفتُها، وصححَّ آخرون أخطاءً فاتتْ عليّ، فشكر الله لكلِّ مَن ساهم في هذا الكتاب، وجعله في ميزان حسناتهم.

وكلُّ هذا لأجل أنْ أصلَ إلى آراء عموم الناس في هذه الحقوق

والآداب، وهل هم يُعايشُونها ويلمسونها؟، وهل ما ذكرتُه يُعالج الأخطاء الموجودة عند أكثر الأصدقاء؟.

علمًا بأني لم أستقصِ الأدلة من الكتاب والسُّنَّة على هذه الحقوق والآداب، وإنما ذكرتُ شيئًا منها.

ولْيُعلم كذلك، أنَّ هذه الحقوق ليستْ خاصَّةً بالصديق، بل قد يشترك غيره ببعضها.

وقد قلتُ في هذا الكتاب وفي قارئه:

حُقوقُ الصَّدِيْقِ يا أُخيَّ مُوَشَّحٌ ... بكلِّ صفاتِ الصَّحْبِ يُجْلي ويُوضحُ
وتَعرفُ وصفًا للطِّباع التي بها ... يُريدُ الصَّدِيْقُ أنْ تَكونَ ويَطْمَحُ
وتُصبِحُ عند الصَّحْبِ أفضلَ مَغْنمٍ ... وأحسنَ مَصْحوبٍ فتَهْنَا وتفرحُ
ويُفصِحُ عن شرٍّ وقُبحٍ لبعضهم ... فَتَحْذَرُ منهمْ ثم وتَنْأَى وتَطْرَحُ
وأَسْعَدُ أيَّاميْ عليَّ نصيحةٌ ... ورأيٌ سديدٌ منك تُهديِ وتَمْنَحُ

فاعملْ ـ أيها الصديق الموفق ـ بما بيَّنتُه وقرَّرتُه في هذا الكتاب من أوصافِ الصديق الصالح، تكنْ صديقًا نافعًا، وصاحبًا مُؤْنسًا.

وكن على حذرٍ من الأوصاف السيِّئةِ والغثَّة التي حذَّرتُ منها، حتى لا تكون ثقيلًا على أصدقائك، بغيضًا إلى أصحابك.

وباعدْ عن جليس السوء، وصاحب الطباع الفاسدة، والأخلاق القبيحة، فإنه سيُعْديك ولا بدّ.

واحذرْ معاشرةَ الدَّنيءِ فإنها ... تُعدي كما يُعدي الصحيحَ الأجربُ

وتمسك بالصديق الذي يستحق أنْ تقضي كثيرًا من وقتك معه، وهو الذي وصفتُه لك، وذكرتُ ما يتميَّزُ به من سلوكٍ وأخلاقٍ عاليةٍ رفيعة؛ حتى تستفيد منه في دينك ودُنياك، ويقفَ معك في يُسرك وبلواك.

أسأل الله تعالى أنْ يجعلكَ مُباركًا موفقًا، إنه سميعٌ قريبٌ مُجيب، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف
أحمد بن ناصر الطيار
إمام وخطيب جامع
عبد الله بن نوفل بالزلفي
البريد الإلكتروني:
ahmed0411@gmail.com
رقم الجوال: ٠٥٠٣٤٢١٨٦٦

معنى كلمة الصديق في اللغة والاصطلاح

لا بدّ أنْ نقف على معنى كلمة الصديق في اللغة أولًا، حتى نعرف مَدْلولاتِها العميقةَ التي تُوضِّحُ قيمةَ الصديق وحقوقه.

يقولُ علماءُ اللغة: كلمةُ صِدْق: أصلٌ يدلُّ على قوّةٍ في الشيء، فالصِّدْقُ: هو القوَّةُ والاسْتقامةُ في الكلام، والصَّدَاقة: مشتقّة من الصِّدق في المودّة والمحبة، والإخلاصِ والنصحِ في الصُّحبة.

تقول فلانٌ صديقي: أي: صَدَقني المودَّةَ والنصيحةَ[١].

فهي التي مَنشؤها الباطِن لا الظاهر، والقلب لا القالَب.

لعمرك ما ودُّ اللسان بنافعٍ إذا لم يكن أصل المودَّة في القلب

«وإنما سمي الصديق صديقًا بصدقه لك، وسمي العدو عدوًا لِعَدْوِه عليك لو ظفر بك»[٢].

فالصديق هو الذي يَصْدقك في النصيحةِ والمحبَّة، ويقف معك عند الضِّيقِ والحاجة، وحالَ اليُسر والإعسار، وعند الفاقةِ والإقتار.

الصداقةُ الخالصةُ حقًّا: هي التي تشتدّ عند الأزمات، وتقوى عند الْمُلمَّات، وتظهر جليَّةً عند الحاجات.

الصديق الذي نعنيه هو الذي قال فيه العتابي: ما أحوجك إلى أخٍ

(١) يُنظر: مقاييس اللغة لابن فارس، مادة: (صدق).
(٢) الصداقة والصديق، ص٣٧٧.

كريمِ الأخوة، كاملِ المروءة، إذا غبت خلَفَك، وإذا حضرت كنَفَك[١]، وإذا نكرت عرفك، وإذا جفوت لاطفك، وإذا بررت كافأك، وإذا لقي صديقك استزاده لك، وإن لقي عدوك كف عنك غرب العادية[٢]، وإذا رأيته ابتهجت، وإذا باثثته[٣] استرحت[٤].

الصديقُ الذي يُشترى بماء الذهب، وتَهُون في طلبه المشقةُ والتَّعَب: «كالغيثِ أين وقَعَ نَفَع، وكالشَّمس حيث أَوْفَتْ أَحْيَتْ، وكالأرض ما حَمَلْتَها حَمَلَت»[٥].

«الصديق لا يُراد ليُؤخَذَ منه شيء، أو ليُعطِي شيئًا، ولكن ليُسكن إليه، ويُعتمد عليه، ويُستأنس به، ويُستفاد منه، ويُستشار في الْمُلِمّ، ويُنهضَ في الْمُهِمّ، ويُتَزَيَّنَ به إذا حضر، ويُتَشَوَّق إليه إذا سفر، والأخذُ والإعطاءُ في عَرْضِ ذلك جاريان على مذهب الجود والكرم، بلا حسد، ولا نكد، ولا تلوم، ولا تلاوم»[٦].

الصديق حقًّا هو الذي يكون لسان حاله كما قال بعضُهم[٧]:

ما ودَّني أحدٌ إلا بذلت له ... صفوَ المودة مني آخرَ الأبد
ولا قَلَاني وإن كان الْمُسيءُ بنا ... إلا دعوتُ له الرحمٰنَ بالرَّشَد
ولا أُئْتُمِنْتُ على سرٍّ فبحتُ به ... ولا مَدَدَتُ إلى غير الجميل يدي
ولا أقولُ: نعم يومًا فأُتْبِعُها ... منعًا ولو ذهبتْ بالمال والولد

(١) أي: ساعدك وأعانك.
(٢) أي: ردّ عنك حدَّة وجفاء الأعداء.
(٣) أي: بحت له بما يختلج في صدرك.
(٤) الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، ص٥١.
(٥) الصداقة والصديق، ص٣١٨.
(٦) الصداقة والصديق، ص٩٣.
(٧) الصداقة والصديق، مع بعض التصرف في البيت الأخير.

ولا أَخُونُ خليلي حَال غَيْبَتِهِ حتى أُغَيَّبَ في الأكفان واللَّحد

الصديق الوفيّ النقي: هو الذي يجتمعُ فيه أمران:

١ ـ أنْ يسوءَه ما ساء صديقه، ويسره ما سرّه.

٢ ـ لا يميل إلى منفعةٍ دُنيويّةٍ، ولا يُفسدُ وُدَّه إنْ مَنَعَه شيئًا يحتاجه[١].

فحبُّه قد تملَّك قلبَه، وميلُه إليه لأخلاقه ودينه، لا إلى ماله وعطائه.

ومثل هذا ليس بمستحيل، ولا بِمُسْتعصٍ عنِ التحصيل، ولا صعب المنال، ولا شديد الْمُحال، بل هو في كل زمانٍ ومكانٍ، وإن كان قليلًا نادرًا.

فقد ثبت عن عَبْد اللهِ بْن عُمَرَ رضي الله عنهما أنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ الْمِائَةُ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**». متفق عليه[٢].

قال الحافظ رحمه الله: الْمَعْنَى: لَا تَجِدُ فِي مِائَةِ إِبِلٍ رَاحِلَةً تَصْلُحُ لِلرُّكُوبِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَصْلُحُ لِلرُّكُوبِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وَطِيئًا سَهْلَ الِانْقِيَادِ، وَكَذَا لَا تَجِدُ فِي مِائَةٍ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَصْلُح لِلصُّحْبَةِ، بِأَنْ يُعَاوِنَ رَفِيقَهُ وَيُلِينُ جَانِبَهُ. ا. هـ[٣].

وليس كما قال أبو حيان التوحيدي رحمه الله[٤]: وإذا أردت الحق علمت أن الصداقة، والألفة، والأخوة، والمودة، والرعاية، والمحافظة

---

(١) رسائل ابن حزم، ص٣٦١، روضةُ العقلاء، ص٧٦، وهذا هو التعريف الاصطلاحي للصديق.

(٢) البخاري (٦٤٩٨)، ومسلم (٢٥٤٧).

(٣) فتح الباري ١١/ ٤٠٧.

(٤) الصداقة والصديق، ص٨٩.

قد نبذت نبذًا، ورفضت رفضًا، ووطئت بالأقدام، ولويت دونها الشفاه، وصرفت عنها الرغبات.ا.هـ.

بل هم الحمد لله بيننا وحولنا، ولكن ربما لم تقع عين كثيرٍ منَّا على أحدٍ منهم، فمن ظفر به، فقد ظفر بحظٍ وافر، وخيرٍ عظيم.

وإذا صفَا لك مِنْ زمانك واحدٌ فهْو المراد وأين ذاك الواحد

فهم اللذة الروحية، والسعادة والراحة القلبية، ومُجالستهم تزيل الهموم، وتُجلي الْغُموم.

وما بَقِيَتْ من اللَّذات إلا محادثةُ الرجال ذوي العقول
وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلًا فقد صاروا أقلَّ من القليل

إخوان الصَّفاءِ خيرٌ من مكاسب الدنيا، هم زينةٌ في الرخاء، وعدّةٌ في البلاء، ومعونةٌ على الأعداء.

لعمرك ما مالُ الفتى بذخيرةٍ ولكنَّ إخوانَ الصّفاء الذّخائرُ

وبعض الناس يُبالغ في طلب الكمال في الأصدقاء، ويرى أنَّ الصديق حقًّا مَن كفاه حاجاته، ولبَّى له جميع رغباته، وكلما طلب منه شيئًا بادر في تنفيذ طلبه، وهذا لم يطلب صديقًا بل طلب خادمًا.

قال أبو حيان التوحيديّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت للهائم أبي علي: من تحب أن يكون صديقك؟ قال: من يُطْعِمُني إذا جعت، ويكسوني إذا عريتُ، ويحملني إذا كللت، ويغفر لي إذا زللت!!.

فقال له علي بن الحسين العلوي: أنت إنما تريد إنسانًا يكفيك مَؤونتك، ويَكْفَلُك في حالك، كأنما تمنيَّت وكيلًا فسميته صديقًا، فما أحار جوابًا.ا.هـ[1].

(١) الصداقة والصديق، ص١٩٥.

ومتى ظفرتَ بهذا الصَّديقِ الوفيّ، والخليلِ الصَّفِيّ، فاحذرْ أنْ تفعل ما يُسبب فتور صُحبتكم، ونُشوءَ الخلافِ بينكم، وذلك بعدمِ مُراعاة الحقوقِ التي سأذكرها بحول الله تعالى.

وقد أوصى كثيرٌ من الحكماء والْمُجرِّبين الصديقَ ألا يتعامل بالتجارةِ مع الصديقِ الْمُخلص؛ لأنَّ التجارةَ يحصُل فيها ما يُكدِّر الخاطر، ويُوقع في النفس نوعًا من حظوظ النفس، فيُؤدِّي ذلك إلى حصول الخلافات وربما القطيعة، والشواهد على ذلك كثيرةٌ جدًّا، وأعرف من الإخوان مَن تقاطعوا لسنواتٍ طويلةٍ عندما عَمِلوا بالتجارة معًا.

وبالجملةِ: فأيُّ أمرٍ تظنُّ من قريبٍ أو بعيدٍ أنه يُؤثر على صديقك فاجْتَنِبْه، وأيُّ أمرٍ أو سلوكٍ يُؤدِّي إلى زيادة الأُلْفة والْمَحبَّةِ فبادرْ إليه.

قال أبو حاتمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: الواجب على العاقل أنْ يعلمَ أنه ليس من السرور شيءٌ يعدل صحبة الإخوان، ولا غمٌّ يعدل غمّ فقدهم، ثم يتوقَّى جُهْدَهُ مُفاسَدَةَ مَن صَافَاه، ولا يَسْتَرْسِلُ إليه فيما يَشِيْنُه.ا.هـ[1].

(١) روضة العقلاء، ص٧٩.

مراتب الأصدقاء

اعلم أنَّ الأصدقاء على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: أصدقاءٌ كالغذاء الذي تقتات منه، يُقوِّي رُوحك، ويصفي خاطرك، ولا بد لك منه على كل حال؛ لأنه قوام حياتك، وزينة دهرك.

وهذا هو الصديق الذي صفَّى لك وُدّه، وأخلصك نُصحه، وأغدق عليك من علمه وفهمه، وأثَّر عليك بصلاحه وأخلاقه.

المرتبة الثانية: أصدقاءٌ كالدواء يحتاج إليه في الحين بعد الحين على مقدارٍ محدود، وهؤلاءِ هُمُ الذين لا شرَّ فيهم، ولا صلاح ترجو منهم، بل تجد بغيتك عند لقائهم، وتأنس في مُجالستهم.

وهؤلاءِ لا تُكثر مُجالستهم، ولا تُدمْ مُخالطتهم؛ حتى لا يضيعَ وقتُك دون طائل.

المرتبة الثالثة: أصدقاءٌ كالداء الذي يُمرض، والجرب الذي يُعدي، وكالسُّمِّ الذي لا ينبغي أن تَقْرَبَه فإنه سَبَبُ هَلَكَتِك، وهؤلاء هم جلساء السوء، وأصحاب الطباع القبيحة، والأخلاق المشينة.

أيهما أصعبُ: ابتداءُ الصداقة أم دوامُها؟

لا شك أنَّ ابْتِداءَ الصحبةِ أسْهَلُ وأَيْسَرُ من دوامِها، فابتداؤها لا يَحْتاج مزيد كُلفة.

قال أبو حيان التوحيدي رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت ابن العميد يقول: إنشاء المعرفة صعب.

قال أبو إسحاق الصابي: تربيتُها أصعب من إنشائها.

قال: فعرضت هذا الكلام على أبي سليمان[١] فقال: أما الإنشاء فإنما صَعُب لأنه لا أوائل له يُناط بها، ويُؤسَّسُ عليها، وأما التربية فإنما صعبت أيضًا لأنها تستعير من الإنسان زمانًا مديدًا هو يشح به، وعناءً متصلًا يشتد صبره عليه، ومالًا مبذولًا قلَّما تطيب النفس بإخراجه إلا إذا كان الكرم له طِباعًا، ويَجِدُ من ضَرِيبَتِه إليه نزاعًا[٢].

(١) هو: محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، أبو سليمان المنطقي: عالم بالحكمة والفلسفة والمنطق.
من أهل سجستان، سكن بغداد، ولزم منزله، لعور فيه وبرص كانا يمنعانه من غشيان منازل الأمراء والوزراء. وأقبل العلماء والحكماء عليه. له عدَّةُ تصانيف. الأعلام ٦/ ١٧١.

(٢) الصداقةُ والصديق، ص٢٤٢.

متى تحكم على أحدٍ أنه صديق؟

لا تحكم على أحدٍ أنه صديقٌ صادقٌ مُخلص، ولا تُثنِ عليه ثناءً مُطلقًا، ولا تُخْلِصْ له وُدَّك وحُبَّك، حتى تُجرِّبه في أربعةِ أمورٍ أو بعضها:

الأمر الأول: في السفر، فكم مَنْ صديقٍ مُعجَبٍ بصديقه أيَّما إعجاب، ويَمْدحُه بإطراءٍ وإسهاب، فما إنْ سافر معه، وأسفر عن أخلاقه ودقائق طِباعه، حتى عاد من سفره ذامًّا له، كارهًا مُجالسته، بل بعضهم لم يُكمل سفره وعاد إلى وطنه.

الأمر الثاني: عند الضيق والحاجة والأمور المالية، فعند الأزمات والشدائد، يتبيَّن الصديقُ الوفيُّ من الرديّ، «وفي تقلّب الأحوال علمُ جواهر الرجال»[(١)].

جزَى الله الشدائدَ كُلَّ خيرٍ عرفتُ بها عدُّوي مِن صديقي

الأمر الثالث: حال الخصومة وسوء التفاهم، فبعض الناس قمةٌ في الأخلاق والبشاشة والأدب، ولكنْ حينما يرى أمرًا لا يُعجبه من صديقه، أو حصل نقاشٌ أو خلافٌ أو خصامٌ تبدَّلتْ أخلاقه الحسنة، وأصبح مُرّ المذاق، عسِر الأخلاق، سريعَ الشقاق.

وصدق الشاعر[(٢)]:

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ)، ص٢٢٦.
(٢) السحر الحلال في الحكم والأمثال لأحمد الهاشمي، ص٥٩.

غايِظْ صديقك تِكْشِفْ عن ضمائِره وَتَهْتِكِ السِّتْرَ عن مَحْجُوبِ أسْرار

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: العاقلُ يسْتَخْبِرُ أمورَ إخْوانه قبل أنْ يُؤَاخِيَهم، ومِن أصحِّ الخبرةِ للمرءِ وجودُ حالتِه بعد هَيَجانِ الغضب.

ثم ذكر بسنده عن أحد الحكماء قوله: إذا أردتَّ أنْ تُواخي رجلًا فأَغْضِبْهُ قَبْلَ ذلك، فإنْ أَنْصَفَك عند غضبه وإلا فدعه.

وروَى عن سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: اصْحَبْ مَن شئت ثم أَغْضِبْه، ثم دُسَّ إليه من يسأله عنك. ا. هـ[١].

الأمر الرابع: كثرةُ المخالطة، فكم مِن إنسانٍ يُغريك مَظهرهُ، ويسحرك لسانه، فتطمع في صُحبته، فما إنْ تُخالطه وتُكثر من مُجالسته حتى تفوحَ منه ريحٌ نتنةٌ، ويغورَ طيبُ فعاله وأقواله ليَطفَحَ قُبحُه وسوءُ خِلالِه.

فلا يَغرَّنك نورٌ راقَ منظرُه إذا تفتَّقَ عن مُرٍّ من الثَّمر

سمع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا يُثني ويمدحُ رجلًا فقال: أسافرت معه؟ قال: لا، قال: أخالطته؟ قال: لا، قال: هل كانت بينك وبينه خصومةٌ؟ قال: لا، قال: والله الذي لا إلٰه غيره ما تعرفه[٢].

واحذر أنْ تتبسَّطَ مع الصديق وتجترئَ على كثيرٍ من المزاح وتكشفَ له الأسرارَ قبل أنْ تُجربه في هذه الأمور أو أحدِها.

ولا تَحْمَدِ الْمَرْءَ قَبْلَ الْبَلاء وكُنْ حَذِرًا قَبْلَ أنْ تختبر

فلا تغتر بأحدٍ مهما كان، ولا تُعجَب به حتى تُجربه وتختبره، وتتعرف على طِباعه في جميع أحواله.

(١) روضة العقلاء، ص٧٩.

(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/ ٣٢٩.

لا يُعْجِبَنَّكَ صاحبٌ حتَّى تَبَيَّنَ ما طِبَاعُه

«واختبر من اشْتبهتْ حالُه عليك، لِتَعلم مُعْتَقَده فيك، فتدري أين تضعه منك؛ فإنَّ الأَلْسُنَ لا تَصْدُق عن القلوب؛ لَمَا يَتَصَنَّعه الْمُدَاجي[١] ويَتَكلَّفه الْمُداهن.

فإنْ وقَفَتْ بك الحالُ على الارْتياب، اعْتَقَدتَّ المودةَ في ظاهره، وأخذتَ بالحزِم في باطنه.

وإذا أَقْنَعَك الإغْضَاءُ عن الاخْتِبَار فلا تَتَخطَّه[٢]، فأكثرُ الأُمور تَمشي على التَّغافل والإغضاء.

فقد قال أكثم بن صيفي: من تشدَّد نَفَّر، ومن تَرَاخى تألَّف، والسِّرُّ في التغافل.

وقَلَّمَا جُوْهِرَ الْمُغْضِي وقُوْطِعَ الْمُتَغَافِل، مع انْعِطَافِ القلوب عليه، ومَيْلِ النُّفوس إليه، وهذا من أسباب السعادة وحسن التوفيق»[٣].

وهناك علاماتٌ لا تحتاج وقتًا طويلًا للتحقق منها، متى ما رأيتها في أيِّ إنسانٍ فاحذرْ أنْ تُفكر في صداقته؛ لأنها تدلُّ على حُمْقه، منها: «سرعةُ الجواب، وتركُ التثبت، والإفراطُ في الضحك، وكثرةُ الالتفات، والوقيعةُ في الأخيار، والاختلاطُ بالأشرار»[٤].

واختر صديقك ملائمًا لخُلُقِكِ وتَوجُّهك، مناسبًا لطبعك، فإن التَّباين والاختلافَ مَدْعاةٌ للتنافُر، مُحرِّضةٌ للقطيعة ـ غالبًا ـ؛ وقد قيل:

---

(١) هو العدو المخفي عداوته، والسيئ الخلق الذي يتظاهر بالأخلاق الجميلة، وبين جنبيه أخلاقٌ غثَّةٌ يُخفيها، لمصلحةٍ يَرْتجيها.

(٢) أي: إذا رضيت بالإغضاء والمداراةِ عن اختباره والتأكد من حقيقته وصدقه: فاكتف به، ولا تتجاوزْه.

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب ٦/ ١١٨.

(٤) روضة العقلاء، ص١٠٥.

«الصاحب كالرُّقعة في الثوب فاطْلبه مشاكلًا[(١)]»[(٢)].

وقد يجد بعضُ الناس انجِذابًا نحو أحدٍ مِن أوّل لِقَاءٍ، وقد بيَّن ﷺ سبب ذلك فقال: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**». متفق عليه[(٣)].

ومعنى الحديث: أنَّ الأرواح أَجْنَاس مُختلفة، وأنواعٌ مُتباينة، فقد ترتاح النفس لشخصٍ ولا ترتاح لغيره، وقد تُقبل على أحدٍ وتُحبه وتهواه، وتنفر من آخر ولا تحبّ صُحبته.

(١) أي: مُشابهًا لك. تقول: شاكلتَ فلانًا شابهتَه وماثلتَه، وتقول: وما شَاكَلَ ذلك: ما كان على نمطه.

(٢) التذكرة الحمدونية لابن حمدون ٢/ ٣٤.

(٣) البخاري (٣٣٣٦)، ومسلم (٦٨٧٦).

التحذيرُ من جلساء السوء

اجتهد ـ أيها الصديق الموفق ـ غاية جُهدك، واحرص غايةَ طاقتك: ألا تُصاحب إلا الصالحين، ولا تُخالطَ إلا الطيِّبين.

قَالَ ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**»(١).

«وَأَمَّا الْفَاسِقُ الْمُصِرُّ عَلَى فِسْقِهِ فَلَا فَائِدَةَ فِي صُحْبَتِهِ، بَلْ مُشَاهَدَتُهُ تُهَوِّنُ أَمْرَ الْمَعْصِيَةِ عَلَى النَّفْسِ وَتُبْطِلُ نُفْرَةُ الْقَلْبِ عَنْهَا، وَلِأَنَّ مَنْ لَا يَخَافُ اللهَ لَا تُؤْمَنُ غَائِلَتُهُ، وَلَا يُوثَقُ بِصَدَاقَتِهِ، بَلْ يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الْأَغْرَاضِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الْكَهْفِ: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النَّجْم: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لُقْمَانَ: ١٥] وَفِي مَفْهُومِ ذَلِكَ زَجْرٌ عَنِ الْفَاسِقِ»(٢).

وكلُّ الأصدقاء والأخلاء: سينقلبون يوم القيامة أعداء، إلا من كانت صحبته لصديقه لأجل الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧] قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: أي كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، إلا ما كان لله عَزَّ وَجَلَّ فإنه دائم بدوامه.ا.هـ.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٨٤١٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة (٩٢٧).

(٢) إحياء علوم الدين ٢/ ١٧١.

وإذا لم تستطع مُعاداته في الظاهر، فَدَارِه قَدْرَ الإمكان.

تجنب صديق السوء واصْرم حباله فإن لم تجد منه مَحيصًا فداره

وما أجمل هذه الوصية العظيمة من أحد السلف: لا تصحب الأشرار، ولا تشتغل عن الله بمجالسة الأخيار[١].

نعم، لا تُجالس ولا تُصاحب جلساء السوء، فإنك لا محالة آخذٌ من طبعهم، ومُقتدٍ بسلوكهم وفجورهم.

قال الأصمعي: سمعت أعرابيًّا يقول: كما أن الصديق يُحَوَّلُ بالجفاء عدوًا، كذلك العدو يُحَوَّلُ بالصِّلَةِ صديقًا.

واحذرْ معاشَرةَ الدنيءِ فإنها تُعدي كما يعدي الصحيحَ الأجربُ

وقال بعضُ السلف: لأن يُبْغِضَك عدوُّكَ المسلمُ خيرٌ مِن أنْ يُحِبَّكَ عدوُّك الفاجر[٢].

وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: كلُّ أخٍ وجليسٍ وصاحبٍ، لا تستفيد منه في دينك خيرًا: فانْبِذْ عنك صحبته[٣].

وبادِرْ بتركه، ولا تُجامله على حساب أخلاقك ودينك، كما قال الشاعر[٤]:

فاهجرْ صديقَكَ إنْ خِفْتَ الفسادَ به واختَرْ شريفًا حليمًا واسِعَ الطِّيبِ
والكفُّ تُقطعُ إنْ خِيفَ الهلاكُ بها على الذراعِ بتقديرٍ وتسبيبِ

(١) الحلية (تهذيبه) ٣/ ٢٨٩.
(٢) الصداقةُ والصديق، ص٢٤٠.
(٣) الحلية (تهذيبه) ٢/ ٣٣٤.
(٤) ديوان أبي العلاء المعري، والشطر الثاني من البيت الأول فيه: إنّ الهجاءَ لمبدُوءٌ بتشبيب..
ولكن غيَّرتُه ليكون مُناسبًا لما أنا بصدده.

(ولا تشتغل عن الله بمجالسة الأخيار)، ما أجمل أنْ يعيَ هذا الكلام ويفهمَه أولئك الأخيارُ الصالحون، الذين انْشغلوا بأصدقائهم عن العلم وتحصيله، وعن الخلوة بالله ولذةِ الأنسِ به، وعن حقوقِ الأهل والوالدين، فحال الكثير منهم، كحال الشمعة، تُضيء للناس وتنفعهم، لكنها في الْمُقابل تُحرق وتُفني نفسها، ولا بدّ مع الأيام أنْ ينطفئَ ضوءُ الشمعة.

يقول أحد الحكماء الذين لهم باعٌ وخبرةٌ في الصداقة: إخوان السوء ينصرفون عند النَّكبة، ويُقبلون مع النعمة، ومن شأنهم التوسل بالإخلاص والمحبة إلى أن يظفروا بالأنس والأمن والثقة؛ وإن رأوا خيرًا ونالوه لم يذكروه ولم يشكروه، وإن رأوا شرًا أذاعوه ونشروه، فإنْ أدَمْتَ مُواصلتَهم فهو الداء المعضل الْمُخُوف على الْمُقَاتِل، وإنْ استرحتَ إلى مُصارمَتهم ادَّعوا الخبرة بك لطول العشرة لك، فكان كذبُ حديثهم مُصدَّقًا، وباطلُهم محقَّقًا[(١)].

وقال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «وقد أحسن الذي قال: إنَّ الأخَ الصالحَ خيرٌ لك من نفسك؛ لأنَّ النفسَ أمارةٌ بالسوء، والأخُ لا يأمرك إلا بالخير». ا.هـ.

ويجب على الصديق أنْ يعظ وينصح جليس السوء، وخاصةً إذا ابْتُلي بمُجالسته، ولْيستغل كلَّ فرصةٍ لنصحه، وكلَّ مُناسبةٍ لوعظه.

وقد يكون الوعظ بأسلوبٍ لطيفٍ غيرِ مُباشر، كما فعل محمد بن واسعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ للرجل الذي قال له: إني لأحبك في الله، قال: فأطع من تحبني فيه![(٣)].

---

(١) الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، ص٢٩.
(٢) محاضرات الأدباء ١/ ٣٣١.
(٣) الصداقةُ والصديق، ص٢٤٠.

فضل الأخوة والصحبة في الله، والإحسان إليهم

لا شك أن اتخاذ الصديق الصالح من الأعمال الصالحة التي يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، قال ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ** ـ وذكر منهم ـ: **وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ**». متفق عليه[(١)].

قال بلال بن سعد رَحِمَهُ اللهُ: أَخٌ لك كلَّما لَقِيَك ذكَّرك برؤيته ربَّك، خيرٌ لك من أخٍ كلَّما لَقِيَك وضع في كفِّك دينارًا[(٢)].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: الْمَخْلُوقُ إذَا أَحَبَّ لِلَّهِ كَانَ حُبُّهُ جَاذِبًا إلَى حُبِّ اللهِ، وَإِذَا تَحَابَّ الرَّجُلَانِ فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ؛ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا جَاذِبًا لِلْآخَرِ إلَى حُبّ اللهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «**حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَإِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءِ وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ، بِقُرْبِهِمْ مِنْ اللهِ، وَهُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرَوْحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَمْوَالٍ يتباذلونها، وَلَا أَرْحَامٍ يَتَوَاصَلُونَ بِهَا، إنَّ لِوُجُوهِهِمْ لَنُورًا، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى كَرَاسٍ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إذَا حَزِنَ النَّاسُ**» فَإِنَّك إذَا أَحْبَبْت الشَّخْصَ لِلَّهِ كَانَ اللهُ هُوَ الْمَحْبُوبُ لِذَاتِهِ، فَكُلَّمَا تَصَوَّرْته

(١) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).
(٢) الصداقة والصديق، ص١٤٤.

فِي قَلْبِك تَصَوَّرْت مَحْبُوبَ الْحَقِّ فَأَحْبَبْته فَازْدَادَ حُبُّك لِلَّهِ، كَمَا إذَا ذَكَرْت النَّبِيَّ ﷺ وَالْأَنْبِيَاءَ قَبْلَهُ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَصْحَابَهُمْ الصَّالِحِينَ، وَتَصَوَّرْتهمْ فِي قَلْبِك، فَإِنَّ ذَلِكَ يَجْذِبُ قَلْبَك إلَى مَحَبَّةِ اللهِ الْمُنْعِمِ عَلَيْهِمْ وَبِهِمْ، إذَا كُنْت تُحِبُّهُمْ لِلَّهِ فَالْمَحْبُوبُ لِلَّهِ يَجْذِبُ إلَى مَحَبَّةِ اللهِ، وَالْمُحِبُّ لِلَّهِ إذَا أَحَبّ شَخْصًا لِلَّهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَحْبُوبُهُ، فَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَجْذِبَهُ إلَى اللهِ تَعَالَى، وَكُلٌّ مِنْ الْمُحِبِّ لِلَّهِ وَالْمَحْبُوبِ لِلَّهِ يُجْذَبُ إلَى اللهِ.ا.هـ[١].

ومحبَّتُهم ومُجالستهم دليلٌ على صلاح القلب وقوة الإيمان، ففي «الصحيحين»[٢] عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

ومن الثمرات العظيمة التي يجنيها مَنِ اتخذ صديقًا صالحًا ما يلي:

١ ـ زيادة الإيمان، وقد ورد عن سلفنا الصالح رحمهم الله ما يُؤكد ذلك، فمن ذلك:[٣]

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ الْإِيمَانَ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ لَيْسَ بَيْنَهُمَا نَسَبٌ قَرِيبٌ، وَلَا مَالٌ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ»[٤].

وقال عون بن عبد الله رحمه الله: ما تحابّ رجلان في الله، إلا كان أفضلهما أشدهما حبًّا لصاحبه.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٦٠٩ ـ ٦١٠.

(٢) البخاري (١٦)، ومسلم (١٧٤).

(٣) يُنظر: حياة السلف بين القول والعمل للمؤلف: الأخوة والصحبة، ص٧٩٧، من الطبعة الثانية.

(٤) كتاب السُّنَّة لأبي بكر الخَلَّال الحنبلي (المتوفى: ٣١١هـ): (١٢٠٥).

وقال محمد بن سوقة رَحِمَهُ اللَّهُ: ما استفاد رجل أخًا في الله إلا رفعه الله بذلك درجة.

٢ ـ الدعاء له بظهر الغيب، قال كعب الأحبار رَحِمَهُ اللَّهُ: رُبَّ قائمٍ مشكورٌ له، ورُبَّ نائمٍ مغفورٌ له، وذلك أن الرجلين يتحابان في الله، فقام أحدهما يصلي، فرضي الله صلاته ودعاءه، فلم يرد عليه من دعائه شيئًا، فذكر أخاه ذلك في دعائه من الليل، فقال: يا رب أخي فلان اغفر له فغفر الله له وهو نائم.

وقال محمد بن يوسف ـ وذكر الإخوان ـ: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقسمون ميراثك، وهو قد تفرد بجدثك[1]، يدعو لك وأنت بين أطباق الأرض.

٣ ـ والأنسُ بهم، واللذةُ بِمُجالستهم، فهؤلاء فَقْدهم غُربةٌ، قال عليُّ بن الحُسين رَحِمَهُ اللَّهُ: فَقْد الأحبَّةِ غُربة.

نعم، فقد الصديق المخلص الناصح من أعظم الغربة.

٤ ـ صحبتُهم من أفضل الأعمال في الدنيا، سُئل محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ: أي عمل في الدنيا أفضل؟ قال: صحبة الأصحاب، ومحادثة الإخوان إذا اصطحبوا على البر والتقوى، فحينئذ يذهب الله بالخلاف من بينهم، فواصِلوا وتواصَلوا، ولا خير في صحبة الأصحاب ومحادثة الإخوان إذا كانوا عبيد بطونهم؛ لأنهم إذا كانوا كذلك ثبَّط بعضهم بعضًا عن الآخرة.

٥ ـ الصديق الصالح عوضٌ عن القريب القاطع، قال القاسم بن محمد رَحِمَهُ اللَّهُ: قد جعل الله في الصديق البارّ عِوَضًا من الرَّحِم الْمُدْبِرة.

---

(١) أي: قَبْرك.

٦ ـ مَن أحب رجلًا صالحًا فإنما أحب الله، قال مكحول رَحِمَهُ اللَّهُ: من أحب رجلًا صالحًا فإنما أحب الله.

وقال رجلٌ لقتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: أَأُحبُّ في الله؟ قال: إنما أحببت ربك.

هذه بعض فضائل الأصدقاء الصالحين المخلصين، فلا ينبغي للعاقل أنْ يتوانَى في اتخاذ الصديق المخلص، ولْيبحث عنه حتى يجده.

ومن أعظم ما يَسْتفيده من اتخذ الأصدقاء الصالحين:

١ ـ أن يتعرف على عيوبه ونقصه من خلال نصحهم له.

٢ ـ وقوفهم معه أوقات الشدائد.

٣ ـ الأُنس بهم عند نزول الكَرْب، أو تكدر الخاطر.

٤ ـ الاستشارة وأخذ الرأي الصائب.

٥ ـ استفادةُ وتحصيلُ العلم النافع، والإعانةُ على ذلك.

٦ ـ دوام صحبتهم، والأمان من انقطاعهم غالبًا.

قال بعضهم: المودة بين الصالحين بطيء انقطاعها، سريع اتصالها، كآنية الذهب، بطيئة الانكسار، هينة الإعادة، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها، بعيد اتصالها، كآنية الفخار التي يكسرها أدنى شيء، ولا وصل له[(١)].

٧ ـ الأمن من الحيف والظلم، فمهما حصل من سوء تفاهمٍ أو فراقٍ فلن يرى منه الظلم، وقد رُوي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لأبي مريم السَّلُولي: والله لا أُحِبُّكَ حتى تُحِبَّ الأرضُ الدَّمَ. قال: فتَمنَعُنِي لذلك حقًّا؟ قال: لا. قال: فلا ضَيرَ[(٢)].

هذا وهو ليس بصديقٍ له رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) الصداقة والصديق، ص٧٠.

(٢) عيون الأخبار ٣/ ١٧.

كيفيَّةُ معرفةِ الحبِّ في الله من غيره

كثيرًا ما يظنُّ الصديقُ أنه يُحب صديقه لله وفي الله، وهو في الحقيقة لا يُحبه إلا لمصلحةٍ أو منفعة.

وبعض الأصدقاء يظن أن من علامات محبته لصديقه في الله أنه لا يجتمع معه على معصية!، وهذا ليس دليلًا كافيًا.

وهناك علاماتٌ إذا رأيت نفسك تأتي بها فاعلمْ أنَّ حُبَّك لصديقك في ذاتِ الله:

١ ـ دعاؤك لمن أحببته بظهر الغيب.

٢ ـ أن يكون سببُ مَحبتِك له، وقوةِ علاقتك به: استقامتَه وصلاحَه، أو علمَه النافعَ الذي يُتْحفك به.

٣ ـ أنْ تُحِبَّ له ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وتَكْرَهَ له ما تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ.

٤ ـ حرصُك على نُصْحِه ووعظه، وترغيبُه على فعل الطاعة، والتحلِّي بالأخلاق الفاضلة.

٥ ـ تنبيهه على عيُوبه برفقٍ ولين.

٦ ـ ألا يكون حُبُّك له، واجتماعك معه على مصلحةٍ دُنيويَّة، أو منفعةٍ ذاتية.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَدْ جُبِلَتْ النُّفُوسُ عَلَى حُبّ مَنْ أَحْسَنَ إلَيْهَا، لَكِنَّ هَذَا فِي الْحَقِيقَةِ إنَّمَا هُوَ مَحَبَّةُ الْإِحْسَانِ لَا نَفْسُ الْمُحْسِنِ، وَلَوْ قُطِعَ ذَلِكَ لَاضْمَحَلَّ ذَلِكَ الْحُبُّ، وَرُبَّمَا أَعْقَبَ بُغْضًا فَإِنَّهُ

لَيْسَ لِلَّهِ ﷻ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ إِنْسَانًا لِكَوْنِهِ يُعْطِيه فَمَا أَحَبّ إِلَّا الْعَطَاءَ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ يُحِبُّ مَنْ يُعْطِيه لِلَّهِ فَهَذَا كَذِبٌ وَمُحَالٌ وَزُورٌ مِنْ الْقَوْلِ، وَكَذَلِكَ مَنْ أَحَبَّ إِنْسَانًا لِكَوْنِهِ يَنْصُرُهُ إِنَّمَا أَحَبّ النَّصْرَ لَا النَّاصِرَ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ اتِّبَاعِ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ فَإِنَّهُ لَمْ يُحِبّ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ جَلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ، فَهُوَ إِنَّمَا أَحَبَّ تِلْكَ الْمَنْفَعَةَ وَدَفْعَ الْمَضَرَّةِ، وَهذا لا يُثَابُونَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، بَلْ رُبَّمَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى النِّفَاقِ وَالْمُدَاهَنَةِ فَكَانُوا فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْأَخِلَّاءِ الَّذِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُهُمْ فِي الْآخِرَةِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَلِلَّهِ وَحْدَهُ، وَأَمَّا مَنْ يَرْجُو النَّفْعَ وَالنَّصْرَ مِنْ شَخْصٍ ثُمَّ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ لِلَّهِ فَهَذَا مِنْ دَسَائِسِ النُّفُوسِ وَنِفَاقِ الْأَقْوَالِ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ الْعَبْدَ الْحُبُّ لِلَّهِ لِمَا يُحِبُّهُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لِكَوْنِ حُبِّهِمْ يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ مَحَبَّةَ اللهِ لَهُمْ[1].

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٦٠٩ ـ ٦١٠.

هل الأفضل: الإكثار أو الإقلال من الأصحاب؟

اختلف السلف والخلف في ذلك على قولين، بعضهم لا يرى الإكثار منهم أبدًا، والبعضُ يرى عكس ذلك.

والذي يظهر أنه ليس بين القولين اختلاف، فإن الذين لا يرون الإكثار من الأصدقاء لا يقصدون الأصدقاء الأوفياء الصالحين.

بل يعنون المعارف والعلاقات العامة، التي يُتَّخَذُ منها الصديقُ الذي لم يُسْتَوثَقْ من إخلاصِه، ولم يُختبَرْ دينُه ووفاؤُه.

فهؤلاءِ أقلُّ ضررٍ يجنيه الْمُكثر منهم أنهم يُرهقونه بزياراتهم، ويُثْقِلونه بِمَطالبهم.

والذين يرون الإكثار منهم لا يقصدون إلا الأصدقاء الناصحين الصالحين.

والقاعدةُ العامة في التعامل مع هذين النوعين: ما قاله أحدُ الحكماء العقلاء: «الإخوان صنفان: إخوانُ الثقة، وإخوان المكاثرة؛ فأما إخوان الثقة فهم الكهف والجناح والأهل والمال، فإذا كنت من صاحبك على حدِّ الثقة فابذل له مالك ويدك، وصاف من صافاه، واكتم سِرَّه وغيبه، وأظهرْ منه الحسن.

واعلم أنهم أقلُّ من الكبريت الأحمر.

وأما إخوان المكاثرة فإنك تُصيب منهم لذَّتك، فلا تقطعن ذلك

فيهم، ولا تَطْلبن ما وراء ذلك من ضميرهم، وابذل لهم ما بذلوا لك من طلاقة الوجه وحلاوة اللسان»[١].

(١) التذكرة الحمدونية لابن حمدون ٢/ ٣٤.

قصص ومواقف في الإحسان إلى الأخ والصديق

سلفُنا الصالح رحمهم الله تعالى، كانوا مدرسةً عظيمةً في كلِّ المجالات، ومن بينها: حفظِ حقوق الصديق، ورعايتِه وصيانتِه، فمن ذلك أنهم رحمهم الله تعالى كانوا يدعون بظهر الغيب لهم، فهذه أُمُّ الدرداء تقول: كان لأبي الدرداء رضي الله عنه ستٌّ وثلاثُ مئةِ خليلٍ في الله يدعو لهم في الصلاة، فقلتُ له في ذلك، فقال: إنه ليس رجلٌ يدعو لأخيه في الغيب، إلَّا وَكَّلَ الله به ملكين يقولان: ولك بمثل. أفلا أرغبُ أَنْ تدعُو لي الملائكة[1].

وكانوا يُواسونهم وهم في أحلك الظروف، وأشد الأزمات، وربما قدَّموهم على أنفسهم!!.

فهذا أحدُ الصالحين الأوفياء رحمه الله تعالى، كان قد جمع مئةَ دينار لا يملكُ سواها، أعدَّها لنفسه وولده ليوم العيد الذي أظلَّه، فكتب إليه صديقٌ له يطلب منه نفقةً، فما كان منه إلا أنْ وضعها في خِرْقةٍ وختمها، ثم أرسل بها إليه، فما لبث هذا الصديق الذي طلب هذه المئة، حتى جاءته رسالةٌ من بعض إخوانه، يذكرُ أنَّه أيضًا في هذا العيد في ضائقة، فأرسل إليه الخِرْقةَ بخِتَمْها.

فبقي الأول لا شيء عنده، فاتَّفق أنَّه كتبَ إلى الثالث وهو صديقُه، يذكرُ حاله وحاجته، فبعثَ إليه الخِرْقةَ بخَتْمِها فعرفَها، فتعجَّب من ذلك

(١) السير (تهذيبه) ١/ ٢٧٣.

فذهب إليه وقال: خبِّرني ما شأنُ هذه الخِرْقةَ؟ فأخبره الخبر، فذهبا معًا إلى الذي أرسلها، وشرحوا القصة، ثم فتحوها واقتسموها. ذكرها الذهبيُّ وصحَّح إسنادها[١].

كانوا يحتملون الأذى لأجل سلامة أصدقائهم، فهذا إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ، كان سبب حبْسه: أن الحجاج طلب إبراهيم النخعي، فجاء الذي طلبه، فقال: أريد إبراهيم، فقال إبراهيم التيمي: أنا إبراهيم، فأخذه وهو يعلم أنه إبراهيم النخعي. فلم يستَحِل أن يدله عليه، فجاء به الحجاج، فأمر بحبسه في الدّيماس، ولم يكن لهم ظلٌّ من الشمس ولا كِنٌّ من البَرْد، وكان كل اثنين في سلسلة، فتغير إبراهيم، فجاءته أمه في الحبس، فلم تعرفه حتى كلمها، فمات في السجن[٢].

كانوا يَصُونونهم ويُكرمونهم، فهذا مطرِّف بن الشخير رَحِمَهُ اللَّهُ قال لِبعض إخوانه: يا أبا فلان إذا كانت لك حاجةٌ فلا تُكلِّمني واكتبها في رُقْعة فإني أكرهُ أن أرى في وجهك ذُلَّ السؤال[٣].

كانوا يتلطفون في إكرامهم، فهذا مورق رَحِمَهُ اللَّهُ كان يتجر فيصيب المال، فلا تأتي عليه جمعة وعنده منه شيء، يلقى الأخ فيعطيه أربعمائة خمسمائة ثلاثمائة، فيقول: ضعها عندك حتى نحتاج إليها ثم يلقاه بعد ذلك فيقول: شأنك بها. فيقول الأخ: لا حاجة لي فيها. فيقول: إنا والله ما نحن بآخذيها أبدًا فشأنك بها. وقال: كره أن يعطيهم على وجه الصدقة[٤].

---

(١) السير (تهذيبه) ٢/ ٩٦٢ ـ ٩٦٣.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٦٣.
(٣) السير (تهذيبه) ٣/ ١٦٠.
(٤) الحلية (تهذيبه) ١/ ٣٧٤.

كانوا يُواسونهم بشكلٍ عجيب، يقول أحدُهم: كنت أمشي مع الخليل بن أحمد فانقطع شسع نعلي، فخلع نعله! فقلت له: ما تصنع؟ قال: أواسيك بالحَفَاء![١].

كانوا يتقربون إلى الله تعالى في خدمتهم، ويعرفون فضل السعي في قضاء حاجتهم.

فهذا الحسين بن علي رضي الله عنهما يأتيه رجلٌ يستعين به في حاجةٍ له، فوجده معتكفًا فاعتذر إليه، فذهب إلى الحسن رضي الله عنه فاستعان به فقضى حاجته، وقال: لقضاء حاجة أخ لي في الله أحب إلي من اعتكاف شهر.

وصدق رسول الله ﷺ: «**وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا؛ يَعْنِي: مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ**». رواه الطبرانيُّ[٢] وصحَّحه الألباني[٣].

وهذا طاووسُ رحمه الله، يقف مع صديقِه حال مرضه، فاسْتمر به المرض حتى جاء مَوسمُ الحج، وكان كلَّ سنةٍ يحج، فترك الحج لأجل تمريضِ صديقه ومُواساته[٤].

كان يحدث بينهم خلافٌ لكنه خلافٌ لا يطول، ولا يُؤثر على علاقتهم ودينهم، فهذا خالدُ بن الوليد وسعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنهما كان بينهما كلامٌ وسوءُ تفاهم، فذهب رجل يقع في خالد عند سعد بن أبي وقاص فقال: مه، إنَّ ما بَيْنَنَا لم يَبْلُغْ دِيْنَنَا[٥].

---

(١) الصداقة والصديق، ص٧٢.
(٢) (٨٦١).
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ص٩٠٦.
(٤) الحلية (تهذيبه) ٢/ ٣٠.
(٥) الحلية (تهذيبه) ١/ ٩٥.

وأخرج البخاري[(١)] وغيرُه، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما مُحَاوَرَةٌ؛ أي: كلامٌ وجدال، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ، فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ.

رضي الله عن أصحاب محمدٍ ﷺ، وجمعنا بهم في جنات النعيم.

هذان الصحابيان الجليلان، اللذان هما أفضلُ الناس بعد النبيِّين والْمُرسلين، يَحدُث بينهما من الخلاف وسوءِ التفاهُم، بل والغضبِ وإغلاقِ الباب في وجه صاحبه، كما يحدث من جميع الناس، والذي يُميِّزُهم عن جميع الناس، أنَّ هذا الخلاف الشديدَ لا يدوم طويلًا، ولا يُحدث فُرقةً وعداوة، بل لا يزيدُهما ذلك إلا محبَّةً وأُلفةً وصلة.

فهذا الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، يَطلبُ من الفاروق أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ ويُسامحه، فَلَمْ يَفْعَلْ ذلك، بل وأَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ.

فما موقفك لو واجهكَ أخوك أو صديقُك بمثل هذا؟، ربما ستقطعه وتكرهه، ولو اعتذر إليك بعدها وتأسَّف: فلن تقبل عذره وأسفه إلا أنْ يشاء الله، ولو قبِلْتَ عذره: لبقي في قلبك مَوجِدةٌ وحَنَقٌ عليه.

انظر ماذا حصل بينهما بعد ذلك، فحينما رأى أبو بكرٍ من عمر رضي الله عنهما هذا الردّ: أصبح مهمومًا حزينًا، وكأن الجبال على عاتقَيْه، أتدرون لماذا؟ ليس لما لاقاه من جفاء عمر، بل خوفًا أنْ يكون قد آذاه، أو بَدَرَ منه شيءٌ أساء إلى صديقه، فما كان منه إلا أنْ أَقْبَلَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، من شدَّةِ الهمّ والغمّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ**»؛ أَيْ: خَاصَمَ، فَجاء وسَلَّمَ ثم قَالَ:

(١) (٣٦٦١).

إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ ﷺ: «**يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ**» ثَلَاثًا.

فما كان من عُمَرَ الفاروق، إلا أنْ نَدِمَ على فعله، وأحسّ بحرقةٍ تجاه تصرُّفه.

فلا إلٰه إلا الله، أين من يتكلَّمُ على صديقه أو أخيه بكلامٍ سيِّءٍ، أين مَن يُغضب صاحبه ويُكدِّر خاطره، ثم يَمضي على وجهه كأنَّ شيئًا لم يكن، لا يسأله مغفرةً وعفوًا، أو يستسْمحُه ويُطيِّبُ خاطره.

فهذا هو الكِبْرُ بعينه، يعتقد أنَّه إذا اعتذر أو طلبَ الْمُسامحة سيقلُّ قدرُه، وتسقُطُ هيبته، وهو لا يعلم أنه بعدم اعتذاره سيقلُّ قدره عند الله تعالى، وسيمقته الناس جميعًا.

فعندما ندم عمرُ رضي الله عنه، أَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ مهمومًا فَسَأَلَ: أَثَّمَ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فازداد همًّا وغمًّا، فما كان منه إلا أنْ توجّه إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مهمومًا حزينًا، فَسَلَّمَ عليه، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ؛ أي: يتغيَّر من الغضب والحنق، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ على عمرَ رضي الله عنهما، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، وَاللهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، بدأ يُدافع ويُحاجج عنه، بل ويحلف بالله أنه كان أظلم، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقْتَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُون لِي صَاحِبِي؟**» قال: فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا.

ما أعظم قلوب الصحابةِ رضي الله عنهم، وسرعةَ عفوهم ومُسامحتهم للمخطئ، مهما بلَغَ وعظُمَ الخطأ، فالصِّدِّيقُ قبِل اعتذار الفاروقِ رضي الله عنهما، بل وجعل يُدافع ويُنافح عنه.

حقوق الصديق الْواجِبَةِ والْمُستحبةِ على صديقه

لَمَّا كانت هذه مكانة الصداقةُ، وهذه حال السلف الصالح معها، ومن المستحيل أنْ يعيش أحدٌ بلا صديقٍ يُؤانسه، وخليلٍ يُصاحبه: كان لزامًا على كلِّ من اتخذ أحدًا من الناس صديقًا أنْ يعرف الحقوق الواجبة والمستحبة عليه تجاهه، وأنْ يُجاهد نفسه على رِعايَتِهَا وأدائها، وهي كما يلي:

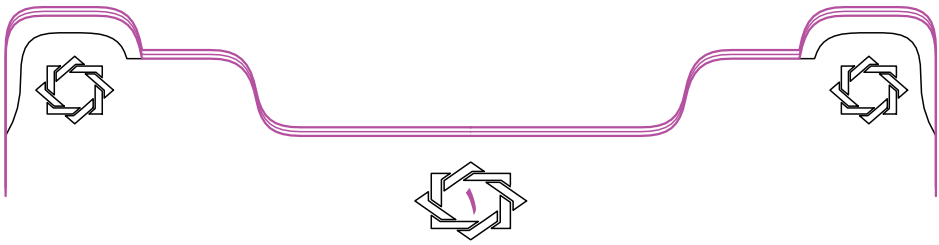

١

الوقوف معه وقت الضيق

يجب عليك ـ أيها الصديق ـ أنْ تقف مع صديقك وتُسانده وقت الفاقة، بالبذل والعطاء، والكرمِ والسخاء.

وتركي مواساة الأخلَّاءِ بالذي ... تنالُ يدي ظلمٌ لهمْ وعقوقُ
وإنِّي لأستحيي من الله أن أُرى ... بحالِ اتِّساعٍ والصديقُ مضيقُ

قِفْ مع صديقك حال شدَّته، واعلم أنْ ما تفعله مع صديقك عند حاجته، هو أمرٌ مُتَحَتِّمٌ عليك، ولك فيه أعظم الأجر عند الله تعالى، قال ﷺ: «**وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا**؛ يَعْنِي: مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ». رواه الطبرانيُّ[(١)] وصحَّحه الألباني[(٢)].

ومَن لم يقف مع صديقه عند ضيقه وشدَّته، فقد صدق فيه قول الشافعيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

صديقٌ ليس ينفعُ يومَ بؤسٍ ... قريبٌ من عَدُوٍّ في القياسِ

قِفْ معه عند مصائِبه، وواسه عند شدائده ومرضه.

وحينما يُصاب بمصيبةٍ فأظهر له حزنك، وإظهارُ الحزن في هذه الحالة قد يَكُون أولى من إبداء الصبر.

---

(١) (٨٦١).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ص٩٠٦.

قال بعضهم: جزعك في مصيبة صديقك أحسن من صبرك، وصبرك في مصيبتك أحسن من جزعك[١].

والمعنى: أنه حينما يُصابُ صديقك بمصيبةٍ تُحزنه، فلا بدّ لك من إبداء الحزن، حتى يُحسّ بأنك تشعر به، وإذا أُصبت أنت بمصيبةٍ فاصبر ولا تحزن.

وهنا لطيفةٌ يذكرها الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ فيقول: من أردتَّ قضاء حاجته بعد أن سألك إياها أو أردتَّ ابْتِداءه بقضائها، فلا تعمل له إلا ما يريد هو لا ما تريد أنت، وإلا فأمسك، فإن تعديت هذا كنت مسيئًا لا محسنًا، ومستحقًا للوم منه ومن غيره لا للشكر، ومقتضيًا للعداوة لا للصداقة[٢].

(١) الصداقةُ والصديق، ص٦٥.

(٢) رسائل ابن حزم، ص٣٦٥.

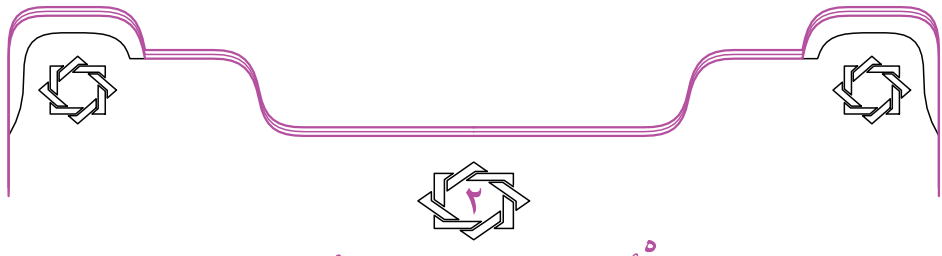

٢

عدم الْبُخل عليه بمالك أو جاهك

إكرامُ الصديقِ الوفي بالمال والجاه يَجذبُ قلبه، ويأخُذُ بِلُبِّه، ويتغاضى عن بعض أخطائك بسببه، ويعفو عن زلَّتك لأجله.

قال أبو حاتمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع أهل التجارب للدهر، وأهلُ الفضل في الدين، والراغبون في الجميل، على أنَّ أفضلَ مَا اقْتَنَى الرجل لنفسه في الدنيا، وأجلَّ مَا يَدَّخِرُ لها في العقبى، هو لزوم الكرم، ومعاشرةُ الكرام؛ لأنَّ الكرم يُحَسِّن الذكر، ويشرِّف القدر.

الكريم محمودُ الأثرِ في الدنيا، مَرْضِّيُ العمل في الْعُقْبَى، يُحِبُّه القريب والقاصي، ويَأْلَفُه الْمُتَسَخِّطُ والراضي». ا.هـ.

وأما البخل على القريب أو الصديق المحتاج، مع وفرة المال فهو من أخس الصفات، وأرذلِ الأخلاق.

عَجِبْتُ لِبَعْضِ النَّاس يَبْذُلُ وُدَّهُ ... ويَمْنَعُ ما ضَمَّتْ عليه الأَصابعُ

إذا أنا أَعطيتُ الخَلِيل مَوَدَّتي ... فليْسَ لِمَالي بعد ذلك مَانِعُ

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: مصيبتان لم يَسمع الأوّلون والآخرون بمثلهما في ماله عند موته، قيل: ما هما؟ قال: يُؤْخَذُ منه كلُّه، ويُسْأَل عنه كله[1].

(١) صفة الصفوة ٤/ ٣٤٠.

نعم يا مَن تُمسك مالك عن إكرام صديقك، سيأخذ ورثتك كلَّ أموالك، وتُسأل عنه يا مسكين في مآلك، وبين يدَيْ ربك وخالقك.

وهل تعلم ماذا سيبقى لك بعد موتك؟ سيبقى ذكرك السيئ، وسمعتك الرديئة.

أين أنت من أصدقائك وأقربائك، الذين ضاقت بهمُ السبل، وأعجزتهمُ الطرائق والحيل.

وصدق أبو تمام حين قال[١]:

إنَّ الكرامَ إذا ما أيسروا ذكروا مَن كان يَأْلَفُهم في المنزلِ الخشنِ

إنك لم تُمسك أموالك عن الإنفاق، إلا لما وقرَ في قلبك من الشك والريب في أن الله سيُخلف لك ما أنفقت، وسيُعوِّضك ما بذلت، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

وقد عدّ العلماء البخل من الكبائر، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال لبني سلمة: «**من سيدكم؟**» قالوا: الجدُّ بن قيسٍ على أَنَّا نُبَخِّلُهُ، فقال: «**وأيُّ داء أدوأ من البخل، بل سيدكم عمرو بن الجموح**»[٢].

نعم! وأي داء أدوأ من البخل، فالبخل من أعظم الأمراض والأدواء، وأخسِّ الطبائع والأخلاق.

ولو لم يكن من آثار ومفاسد البخل والشح، إلا أنَّ صاحبه فقد لذة الإنفاق، وسعادةَ الإغداق، فإن المنفقَ يجد عند إنفاقه وبذله، وإعطائه وكرمه، سعادةً لا توازيها سعادة، ولذةً لا تساويها لذة.

---

(١) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/ ٣٣٥.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٩٦)، وصححه الألباني في الأدب المفرد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ مُعدِّدًا أَسْبَابَ انْشِراحِ الصّدْرِ ـ: ومنها: الْإِحْسَانُ إِلَى الْخَلْقِ، وَنَفْعُهُمْ بِمَا يُمْكِنُهُ مِنْ الْمَالِ وَالْجَاهِ، فَإِنّ الْكَرِيمَ الْمُحْسِنَ أَشْرَحُ النّاسِ صَدْرًا، وَأَطْيَبُهُمْ نَفْسًا، وَأَنْعَمُهُمْ قَلْبًا، وَالْبَخِيلُ الّذِي لَيْسَ فِيهِ إحْسَانٌ، أَضْيَقُ النّاسِ صَدْرًا، وَأَنْكَدُهُمْ عَيْشًا، وَأَعْظَمُهُمْ همًّا وَغَمًّا.

وَقَدْ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الصّحِيحِ، مَثَلًا لِلْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدّقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ؛ أي: دِرعان، كُلّمَا هَمّ الْمُتَصَدّقُ بِصَدَقَةٍ، اتّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ، وَكُلّمَا هَمّ الْبَخِيلُ بِالصّدَقَةِ، لَزِمَتْ كُلّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، وَلَمْ تَتّسِعْ عَلَيْهِ، فَهَذَا مَثَلُ انْشِرَاحِ صَدْرِ الْمُؤْمِنِ الْمُتَصَدّقِ، وَانْفِسَاحِ قَلْبِهِ، وَمَثَلُ ضِيقِ صَدْرِ الْبَخِيلِ وَانْحِصَارِ قَلْبِهِ[(١)].ا.هـ.

وصدق القائل[(٢)]:

المال عندكَ مخزونٌ لوارثه ... ما المالُ مالُك إلا حين تُنفِقه

وصدق الآخر[(٣)]:

يا جامع المال في الدنيا لوارثه ... هل أنت بالمال قبل الموت منتفع

قدِّم لنفسك قبل الموت في مهل ... فإنَّ حظَّك بعد الموت منقطع

ومن أعظم البخل: البخل على الصديق بجاهه وشفاعته.

فيا من رزقه الله مكانةً ومَنْصِبًا اعلم أن زكاتها: الشفاعة والإعانة للمحتاجين من الأصدقاء والأقرباء، على ألا يبخس بها حق الآخرين، فإن الشفاعات من أعظم العبادات إذا قصد بها وجه الله عز وجل.

(١) زاد المعاد ٢/ ٢٤.
(٢) الأغاني ٢٣/ ١٣٤.
(٣) روضة العقلاء، ص٢٣٣.

ولا يعني هذا أنْ يتكلف الصديق لصديقه ما لا يجده، ويتجشَّم ما لا يُطيقه.

ما كَلَّفَ اللَّهُ نفسًا فوق طاقتِها ولا تَـجُـودُ يَـدٌ إلَّا بِـمَـا تَـجِـدُ

فبعضُ الأصدقاءِ يتكلَّف ويشقُّ على نفسه لأجل صديقه، وربَّما اسْتدان لأجله، وهذا لا ينبغي أبدًا، فإنه سيُحرج نفسه وصديقه أيضًا.

قال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما تقاطع الناسُ بالتكلف، يزور أحدهم أخاه فيتكلف له، فيقطعه ذلك عنه.

وكان مُحَمَّد بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ يقول[1]:

إنك إن كلفتني ما لم أطق ساءك ما سرك مني من خلق

(١) الحلية (تهذيبه) ١/ ٣٩٠.

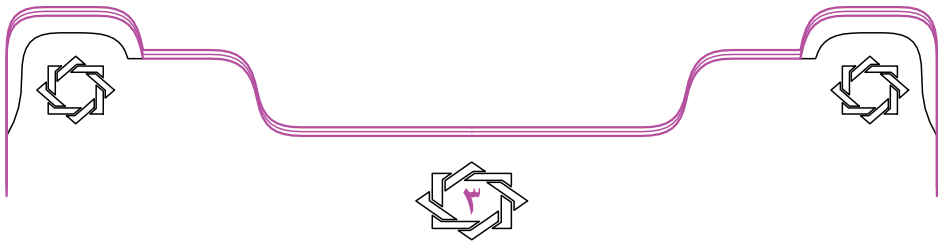

٣

مُعاملته بالاحترام والأدب

إن الاحترام والأدب مع الناس من أعظم ما يجلب المودة والمحبة، ويزرع في القلوب السعادة والألفة، وإن الرجل بلا احترام، يكون بغيضًا ثقيلًا بين الأنام، ويرتكب بسبب ذلك الأوزار والآثام.

رأيتُ العزَّ في أدبٍ وعقلٍ وفي الجهل الْمَذلّةَ والهوانا

كان النبي ﷺ على جلالة قدره، ورِفْعة منزلته: يتعامل مع الناس بمنتهى الأدب والاحترام، بل إن أدبه طال حتى اليهود وعبَّاد الأصنام.

فهذا زَيْدُ بن سُعْنَةَ يقول: لَمْ يَبْقَ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتُهَا فِي وَجْهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ، إِلَّا اثْنَتَيْنِ لَمْ أُخْبَرْهُمَا مِنْهُ: يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، وَلَا يَزِيدُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا، قَالَ: فَكُنْتُ أَتَلَطَّفُ لَهُ لِأَنْ أُخَالِطَهُ فَأَعْرِفَ حِلْمَهُ وَجَهْلَهُ، فَذَكَرَ قِصَّةَ إِقْرَاضِه لِلنَّبِيِّ ﷺ مَالًا فِي تَمْرٍ، قَالَ: فَلَمَّا حَلَّ الْأَجَلُ أَتَيْتُهُ فَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ قَمِيصِهِ وَرِدَائِهِ، وَهُوَ فِي جِنَازَةٍ مَعَ أَصْحَابِهِ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِوَجْهٍ غَلِيظٍ، وَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ أَلَا تَقْضِينِي حَقِّي؟ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُكُمْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَمُطْلٌ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ عُمَرُ وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي وَجْهِهِ كَالْفَلَكِ الْمُسْتَدِيرِ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَدُوَّ اللهِ أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أَسْمَعُ، وَتَفْعَلُ مَا أَرَى؟ فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَوْلَا مَا أُحَاذِرُ فَوْتَهُ لَضَرَبْتُ بِسَيْفِي رَأْسَكَ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى عُمَرَ فِي سُكُونٍ وَتُؤَدَةٍ وَتَبَسُّمٍ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ

هَذَا مِنْكَ يَا عُمَرُ أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الْأَدَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ، اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ فَاقْضِهِ حَقَّهُ وَزِدْ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ. فَأَسْلَمَ زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ رضي الله عنه، وَشَهِدَ بَقِيَّةَ الْمَشَاهِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتُوُفِّيَ عَامَ تَبُوكَ رضي الله عنه[1].

أيُّ أدب تعرف البشريةُ مثل هذا الأدب، يهودي كافرٌ، يمدُّ يده عليه ﷺ، ويتَّهمُه بأنه هو وأصله مماطلون، وأين كان هذا؟ في جنازةٍ لأحد أصحابه، فليست النفس مستعدة في العادة لتحمل مثل هذا، فما كان من عمر الفاروق رضي الله عنه إلا أن رد على هذا اليهودي وعنفه، فنهره النبي عليه ﷺ، وقال له: «**كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْكَ يَا عُمَرُ أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الْأَدَاءِ**»، أداء الدين الذي عليّ، «**وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ**»؛ أي: بالرفق في طلب الدين، «**اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ فَاقْضِهِ حَقَّهُ**»، بل زاد على ذلك وقال: «**وَزِدْ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ**».

هل أخلّ النبي ﷺ بشيء من الأدب مع هذا اليهودي؟ هل رفع صوته عليه؟ لا، مع أن هذا اليهودي يستحق ذلك وأشد.

فيا أيها الصَّدِيْقُ: أليس صديقُك المسلم أحقَّ بأن تُعامله بهذا الأدب والرفق واللين؟

ولن يصفو لنا أحدٌ مهما قرب منَّا بغير الاحترام والأدب معه، حتى أولادنا وأزواجنا، فكيف بالبعيدين منَّا؟.

قال ابن القيم رحمه الله: وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبَواره. فما استُجلب خير الدنيا والآخرة بمثل

(١) رواه الحاكم وصححه (٢٢٣٧)، وقال في حاشية البداية والنهاية: رواه أبو نعيم، وحسنه الحافظ ابن حجر.

الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب[١].ا.هـ.

والأدب مع الناس من أعظم ركائز الدين، وأفضل الأعمال عند رب العالمين.

قال عبد الله بن المبَارك رَحِمَهُ اللَّهُ: كاد الأدب يكون ثُلثَي الدِّين[٢].

بل قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الأدب هو الدين كله[٣].

وقد كان السلف الصالح يتعلمون الأدب قبل تعلم العلم، ويَرَون أن تعلم الأدب أهمُّ من تعلم العلم.

فهذا الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: كنا نأتي العالِم فما نتعلم من أدبه أحب إلينا من علمه[٤].

إنَّ الاحترام والأدب في أقوال وتصرفات الأصدقاءِ بعضِهم مع بعضٍ ينبغي أنْ يكون هو الأساسُ والأصل، مهما قويت وتقادمتِ العلاقة، ووُجدتِ المودَّة، وكثيرٌ من الناس لا يُراعي ذلك مع أصدقائه، وإنما مع الغرباء، وهذا من العجيب!.

(١) مدارج السالكين ٣/ ٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٣٧٩.
(٣) مدارج السالكين ٣/ ٢٠٠.
(٤) الحلية (تهذيبه) ٢/ ٢٣.

٤

الانبساطُ معه دون إفراطٍ ولا تفريط

لا ينبغي أنْ يتَكلّفَ الأصحابُ في الاحتشام والمروءةِ؛ لأنَّها تُذهب طعم الصحبة، ويعظم ويكبر الخطأ والزلل معها.

قال بعضُهم[١]: شرُّ الإخوان من يُحتشَم منه ويُتَكلَّف له.

وقال آخر: اعلمْ أنَّ المودة لا تتم ما دامت الحشمةُ عليها مُسْلَطَةً.

والانبساط الْمُنضبط طاردٌ للسَّآمةِ والْمَللِ الذي قد يعتري الصحبة، قيل لبعضهم: ما آفة الْمَلَالِ؟ قال: كثرة الإِدْلَالِ.

متى يَجدُ الإنسانُ خِلًا مُوافِقًا ... يخففُّ عنهُ كلفةَ المتحفِّظِ

والصديق إذا لم يجد الثقة والأمان من صديقه فلنْ يستمتع بالصداقة الحقَّة.

يقول أحد الحكماء الذين لهم باعٌ وخبرةٌ في الصداقة: لا يزال الإخوان مسافرين في المودَّة حتى يبلغوا الثقة، فتطمئنّ الدار، ويُقْبِلُ وُفود التَّناصح، وتُؤْمَنُ خبَايا الضمائر، وتُلْقَى ملابس التَّخلُّق، وتُحَلُّ عقد التَّحفظ[٢].

نعم، هذه هي الصداقةُ الحقَّة، وهي التي فيها اللذةُ والأنس والفائدةُ.

---

(١) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/ ٣٣٦.

(٢) الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، ص٢٩.

فلن تكون المودَّةُ والمحبة دائمة بين الأصدقاءِ حتى يبلغوا الثقة، وعلامةُ وجود الثقةِ بينهم أنهم:

- يَقبلُون التَّناصح، فينصح بعضُهم بعضًا دون خوفٍ أو قلقٍ.
- الأمنُ من خبَايا الضمائر، فيثقُ الصديقُ بأنَّ بَاطن صديقه مثلُ ظاهره، وأنه لن يَحمل في قلبه عليه؛ لأنه لو وجد عليه لأخبره وكاشفه.
- يُلْقون ملابس التَّخلُّق؛ أي: يَطرحون التصنع والتكلف.
- يَحُلُّون عُقَدَ ورباط التَّحفظ؛ أي: التحرُّز والاحتياط.

ولا يعني هذا أنْ يُفرطَ الصديقُ في الانبساط، فإياك وسَقْطَةَ الاسْتِرْسَالِ فإنَّها لا تُسْتَقَال؛ لأنها تجرّ إلى الهزْل والإفراطِ في المزحِ وارْتكابِ ما لا يُحمد.

ومن عجيبِ بعض الأصدقاء: أنه يُحب صديقه محبَّةً عظيمة، ومِنْ شدَّة حُبه أنه يُمازحه كثيرًا، وربما قسا عليه بكلامه، وأضرَّه بفعاله، والآخر يعلم صفاء نيَّته، وصدقَ مودَّته، ولا يجد غضاضةً من تصرفاته!، ولو تعرَّض صاحبه للقدحِ في غيابه، أو ناله ضيمٌ أو أذى من غيره، لأقام الدنيا وأقعدها دفاعًا عنه، ووقُوفًا إلى جانبه!.

ويصدقُ فيهم قول الشاعر الجاهلي:

أُنَاجي أَخيْ في كلِّ حَقٍّ وباطلِ ... وأُرْغِمُه حتى يَمَلَّ مَلَائِلِي[1]
فإنْ رامَهُ بالظُّلْم غيري وَجَدْتُني ... له باذلًا مِنْ ذاك نَفْسُ مُقَاتِلِي
فأَظْلِمه جَهْدي وأمنع ظُلْمه ... بِجَهْدٍ ولا أُخْليه شَحْمَة آكل
فإنْ سِيْمَ خَسْفًا أو هَوَانًا تَرَبَّدَتْ ... قَسَائِمُ وجْهِي واعْتَرَتْنِي أَفَاكِلِي[2]

(١) لم أتوصل لمعناها.
(٢) أَفَاكِلِ: جمع أَفْكَل، وهو الرِّعدة والرّعشة من بَرْد أو خوف أو غضب.

وخُضْتُ غِمَار الْمَوت دون مَنَاله حِفَاظًا ولَمْ أُسْلِمْ أَخِي لِلْمُنَاضل

يقول أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ تعليقًا عليها: وهذه أبياتٌ تصلح للحفظ؛ لما فيها من شرف اللفظ، وحسن الرونق، وصحة المعنى.

وطرازُ العرب غيرُ طراز المتشبهين بهم[1].

(١) الصداقة والصديق، ص٤٧٦، وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ، إلا أنَّ البيت الأول وأول كلمتين من صدر البيت الثالث لا يُوافقُ عليها قائلها، فلا ينبغي مُناجاة الصديق بالباطل، وإرغامه حتى يملّ، وظلمه.

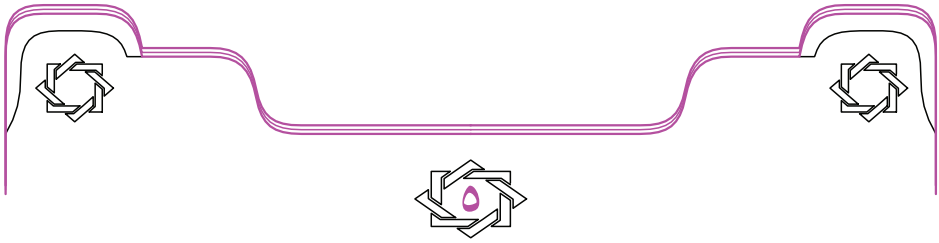

٥

ألا تنقل إليه ما يؤلم نفسه ولا ينتفع بمعرفته

كَمْ هُمُ الذين ينقلون أخبارًا وقصصًا مُؤلمةً لأصدقائهم، ولا يشعرون أنهم بذلك يُؤْذونهم أشدَّ الإيذاء.

وكذلك لا تكتمْه ما يحتاج إليه وينفعه.

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: ليكن حظ المؤمن منك ثلاثًا: إن لم تنفعْه فلا تضرّه، وإن لم تُفرحْه فلا تغمّه، وإن لم تمدحْه فلا تذمّه[1].

ما أعظم هذا المنهج، فيا أيها الصديق: إن لم تنفعْ صديق لشغلك أو عدمِ رغبتك فلا تضرّه، وإن لم تُدْخل الفرحةَ والسرور عليه فلا تغمّه، وإن لم تَمْدَحْه وتُثنِ عليه فلا تذمّه. هذا أقلُّ ما تُقَدِّمُه له، وهو أدنى درجات الصُّحبة.

(١) صفة الصفوة ٤/ ٣٤٠.

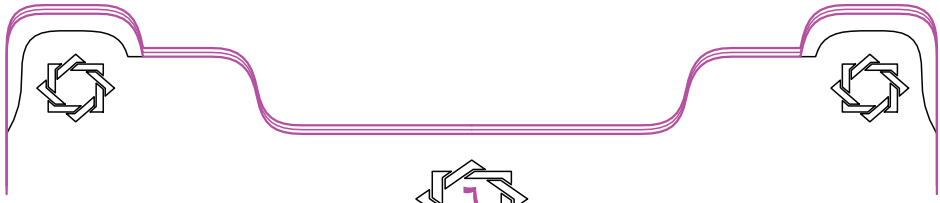

٦

الْتماس الأعذار له

ما أحوجنا لهذا الحق، فبِه يسلمُ الصديقُ من التَّحامل على صديقِه، ويسلمُ الخاطرُ من الْمُكدِّرات والْمُنغِّصات.

قال أبو قلابة رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا بلغك عن أخيك شيْءٌ تكرهه، فالتمس له العذْر جُهدَك، فإن لم تجد له عذرًا، فقل في نفسك: لعل لأخي عذرًا لا أَعْلَمُه[١].

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا سمعت كلمةً من مسلم فاحملها على أحسن ما تجد، حتى لا تجد محملًا[٢].

تأنَّ ولا تعجلْ بلومِك صاحبًا ... لعلَّ له عذرًا وأنتَ تلُوم

يقول أحدُ الدعاةِ الْمُربين وفقه الله: «مِن المزعجِ أنْ يجعل الإنسانُ كلَّ موقفٍ، أو أزمةٍ يَمُرُّ بها: هي موطنُ اخْتبارٍ لأصحابه، الذين عرفهم وجربَّهم مُنْذُ سنوات». ا.هـ.

نعم، إنَّ الصديق الذي جرَّبتَه وعاشرتَه لسنواتٍ عدَّة، لا ينبغي أنْ تُوقفَه عند كلِّ موقفٍ لم يُحسنِ التصرف فيه في نظرك، كأنْ تُرسل له رسالةً فلم يردّ عليها، أو تُصابَ بمرضٍ فلم يَعُدْك أو يتَّصلْ عليك، أو تمرَّ بضائقةٍ فلم يقفْ معك كما ينبغي، لا تجعلْ هذه المواقفَ مَوَاطن

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٦٨، موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/ ٥٢٥.
(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/ ٥٢٥.

اختبارٍ وتقييمٍ[١] له، فإنْ فعل ما تُحِبُّ: حكمتَ بأنه صديقٌ وفيّ، وإنْ لم يفعلْ: شكَكْتَ في صداقته وإخلاصه.

ومن يبغ الصديق بغير عيبٍ سيبقى الدهرَ ليس له صديق

وأيُّ جوادٍ لا يكبو، وأيُّ صارمٍ لا ينبو؟.

والصديق إذا لم يكن مع صديقه كما قال الشاعر[٢]:

كنْ كيفَ شئتَ فإنَّني بكَ واثقٌ ولئنْ ذمَمْتُكَ إنِّني لكَ حامدُ

فليس هو الصديق الواثق من صديقه، الذي قد وثق من باطنه كما وثق من ظاهره.

توفي ابنٌ ليونس بن عبيد رحمهما الله تعالى فقيل له: إنَّ ابن عون لم يأتك. فقال: إنا إذا وثقنا بمودةِ أخٍ لا يضرنا ألا يأتينا![٣].

يا له من جوابٍ سديد، وردٍّ رشيد، من رجلٍ فَقَد صاحبَه في أحْلك الظروف، وهو موتُ ابنه وفلذةِ كبده، ومع ذلك لم يحملْ عليه في خاطره، ولم تَنْزلْ مودَّتُه من قلبه، ولم تَهتزَّ ثقتُه به من نفسه.

وهذه امرأةُ طلحة بن عبد الله الذي كان من أجود الناسِ في زمانه، تقول له مُتسخطةً من أصحابه: ما رأيت أَلْأَمَ مِن أصحابك، إذا أيسرتَ لزموك، وإذا أعسرتَ تركوك، فقال: هذا من كَرَمهم، يَغْشَوْنَنَا في حال القوة منَّا عليهم، ويُفَارِقُونَنَا في حال العجز منَّا عنهم![٤].

---

(١) بمعنى: التثمين والتقدير.
وقد اختلف أهل اللغة حديثًا: أيهما أصح: التقويم أو التقييم؟
منهم من منع، ومنهم من أجازه، وهو اختيار مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٦٨م.
وأما مصطلح تقويم فمعنا: التعديل أو التصحيح.

(٢) الزهرة لابن داود الأصبهاني، ص٤٨.

(٣) الصداقة والصديق، ص١٣٦.

(٤) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/ ٣٣٤.

فهذا والله من أحسن الظنون، وقمَّةِ الْتماسِ الأعذار.

وقد ذكر أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ موقفًا لأحد الأمراء العقلاء، حين دعاه السلطان في بغداد، فسار إليه ونزل بلدةً قريبةً من بغداد ليستريح بها، ويتهيأ للدخول على السلطان، فجاءه قومٌ من بغداد إلى مكانه، وتلقوه بالحفاوة والتكريم والسلام، فلما وصل بغداد أتاه قومٌ لم يتكلفوا لقاءه، ولم يخرجوا للسلام عليه في محله كما فعل الآخرون، فقال: كم من إنسان قعد لم يُغادر مجلسه حتى وافيناه فكان ألصق بقلوبنا، وأسكن في أسرارنا من قوم تكلفوا المسير إلينا، إلا أن المودة هي الأصل، والصداقة هي الركن، والثقة هي الأساس، وما عدا ذلك فمحمول عليه، ومردود إليه[(١)].

وصدق يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى حين قال: بئس الصديق صديقٌ تَحتاج معه إلى المداراة، وبئس الصديق صديقٌ تحتاج أن تقول له: أُذْكرني في دعائك، وبئس الصديق صديقٌ يلجئك إلى الاعتذار[(٢)].

(١) الصداقة والصديق بتصرف، ص١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) الصداقة والصديق، ص١٤١.

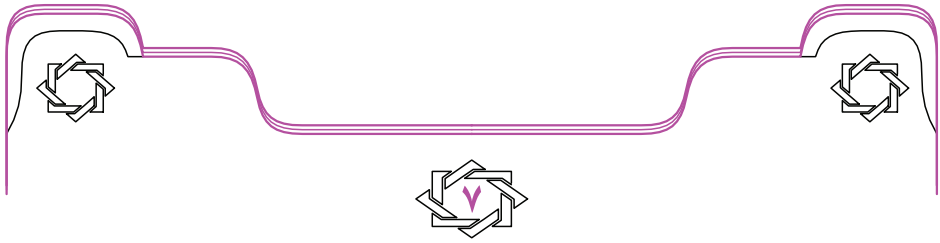

٧

إحسان الظن به وبما يصدر منه من قول أو فعل

كم اتَّهم بعضُ الأصدقاءِ صديقه دون أنْ يَتيَقَّن ويتأكَّد من ذلك، كم اغتاب وحكم على نيَّاتِ آخرين، بسبب موقفٍ أو كلامٍ يحتمل أوجهًا كثيرة، ولكنه لا يأخذ إلا بأسوأ الأوجه والاحتمالات.

أين هو من قول سلَفِنا الصالحِ رحمهم الله: إذا بلغك عن أخيك شيْءٌ تكرهه، فالتمس له العذْر جُهدَك، فإن لم تجد له عذرًا فقل في نفسك: لعل لأخي عذرًا لا أعلمه[١].

يا لها من قاعدةٍ عظيمة، ونصيحةٍ سديدة، ووالله لو طبقناها لزالتْ أكثرُ مشاكلِنا وخلافاتنا.

لا تكون عداوةٌ ولا قطيعةٌ إلا بسبب سوء الظنّ غالبًا.

لا تحدُثُ قطيعةٌ بين صديقين بسبب مزاحٍ، إلا لظنِّه أنَّ المازح يستخفُّ به.

ولا تكونُ قطيعةٌ بسبب مالٍ وتجارة، إلا لظنِّ أحدهما أنَّ الآخر يستأثر ويستولي عليه.

لا تكونُ قطيعةٌ بسبب نصيحةٍ أو مُصارحة، إلا لظنِّه أنَّ الناصح يتصيَّد أخطاءه أو يتعالى عليه.

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٦٨، موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/ ٥٢٥.

ولا غيبةَ ولا نميمةَ ولا تجسسَ إلا بسبب سوء الظن.

وهذا على وجه العموم والأغلب، والأمثلةُ كثيرةٌ لا تُحصى.

فليحذر الأصدقاء أشدَّ الحذر من سوء الظنّ، ولْيتعاملوا فيما بينهم بأحسن النيَّات، ولْيعذُر بعضُهم بعضًا حينما يرى من أحدهم ما يكرهه.

واعلم ـ أيها الصديق ـ أنَّ الْمَقصودَ بالظنِّ الْمنهيِّ عنه: أنْ تتَّهم أحدًا بلا بيِّنةٍ أو قرينةٍ مُؤَكَّدة، كمن يتهم صديقه بأنَّه فاسقٌ أو مُنافق، أو مُتكبِّرٌ أو بخيلٌ أو نحوُ ذلك.

وهذا الظنُّ إنما هو إثمٌ وذنبٌ على صاحبه، قال العلامةُ الغزاليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم أن سوءَ الظن حرامٌ مثلَ سوءِ القول، فكما يحرم عليك أنْ تُحَدِّثَ غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تُحَدِّثَ نفسك وتسيءَ الظن بأخيك.

والظن: عبارةٌ عمَّا تركن إليه النفس، ويميل إليه القلب.

وكما يجب عليك السكوتُ بلسانك عن مساويه، يجب عليك السكوتُ بقلبك، وذلك بترك إساءة الظن، فسوءُ الظن غيبةُ القلب، وهو منهيٌّ عنه أيضًا، وَحَدُّهُ: أَلَا تَحْمِلَ فِعْلَهُ على وجهٍ فاسد، ما أمكن أن تحمله على وجه حسن.ا.هـ[1].

كَمْ نَخَرَ هذا المرضُ القتَّال في قلوبِ الأقرباء، وكم تقاطع بسببه الأصحاب والأصدقاءُ.

فالظنُّ هو من أعظم أسباب التقاطُعِ والتدابُر، والقتلِ وإراقةِ الدماء.

فما من شرٍّ إلا والظنُّ السيِّئُ أحدُ أسبابه، وما من جريمةٍ إلا وهو أحدُ دوافعها.

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ١٧٧، ٣/ ١٥٠.

بل إنَّ الظنَّ السَّيِّئ يجعلُ الحسن قبيحًا، والحقَّ باطلًا، فإذا أساء أحدٌ الظنَّ بأحد، فابْتسامتُه له يعتبرها شتيمةً واسْتهزاءً، ومدحُه له يراهُ خوفًا أو رياءً، فكلُّ حقٍّ جاء من قِبَلِه يراه باطلًا وضلالًا.

وصدق القائل:

وعَيْنُ السُّخط تُبْصِرُ كلَّ عيبٍ وعَيْنُ أخي الرضا عن ذاك تعمى

وصدق الآخر:

وعينُ الرّضَا عن كل عيبٍ كليلةٌ ولكنّ عينَ السُخط تُبدِي المساويا

واعلم يا مَن تغلغل سوءُ الظنِّ في قلبك: أنَّ أسرارَ القلوب لا يعلمها إلا علَّامُ الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا، إلا إذا انكشف لك بعيانٍ لا يحتمل تأويلًا، فعند ذلك لا تعتقدْ إلا ما علمتَه وشاهدتَه، فما لم تشاهده ولم تسمعه ثم وقع في قلبك، فإنما الشيطان يلقيه إليك، فيجبُ عليك تكذيبه فإنه أفسق الفساق.

والظنُّ إنَّما مَنشؤه التَّوهُّمُ والتخمين، فكيف يبني عاقلٌ حكمًا على وهمٍ واحتمال؟.

وما أكثرَ ما يطرق مسامعنا في مجالسنا وبيوتنا: فلانٌ قصد بكلامه كذا، وفلانٌ يعني بتصرُّفه كذا، وفلانٌ ما فعل كذا إلا رياءً ونفاقًا.

إذا حلَّ سوءُ الظن في النفوس، أدى بها إلى الاتهام المتعجل، وتتبع العثرات، وتلقُّطِ الهفوات والزَّلات.

والكاسب الوحيدُ هنا هو إبليسُ نعوذ بالله منه.

يا أخي: إنَّ علمَ ما تُكِنُّه النفوسُ وتُخفيه، والمحاسبةَ عليها هي ممَّا اخْتصّ الله ﷻ به، فهو يعلم السر وأخفى، أما نحن، فليس لنا من إخواننا إلا ما ظهر من عملهم، وما بان من أقوالهم وأحوالهم، ولم

نُكلَّفْ ببواطنِ النيَّات ولله الحمد، وهذا ما تربَّى وربَّانا عليه سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى، فقد روى البخاريُّ في صحيحه(١) عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أنه قال: إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمِنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ.

وبعضُ الأصدقاء عنده إفراطٌ ومُبالغةٌ في توجُّسِه وإحساسه من صديقه، إنْ سمع منه كلمةً لا تُعجبه حملها في خاطره، وإن مازحه أو ناصحه اعتبره تنقُّصًا في حقِّه.

فليس بين الأصدقاء حساسيةٌ(٢) مُفرطة، ولا تفسيراتٌ وتحليلاتٌ غريبةٌ فيما يحدث بينهم، بل لا بدّ أنْ يسود بينهمُ البساطةُ وحسنُ الظن.

---

(١) (٢٦٤١).

(٢) الحساسية تُطلق على معانٍ منها: غَلَبَةُ الوجعِ في الْمَشَاعِرِ، وشدَّةُ الإحساس في الخواطر، وتأتي بمعنى شدَّة الرِّقةِ.
قال ابن فارسٍ رحمه الله في مقاييس اللغة في مادة: (حَسَّ) الْحَاءُ وَالسِّينُ أَصْلَانِ: فَالْأَوَّلُ غَلَبَةُ الشَّيْءِ بِقَتْلٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَالثَّانِي حِكَايَةُ صَوْتٍ عِنْدَ تَوَجُّعٍ وَشَبَهِهِ.
فَالْأَوَّلُ الْحَسُّ: الْقَتْلُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٥٢].
وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ أَحْسَسْتُ؛ أَيْ: عَلِمْتُ بِالشَّيْءِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨]. وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى قَوْلِهِمْ قَتَلْتُ الشَّيْءَ عِلْمًا.
وَيُقَالُ لِلْمَشَاعِرِ الْخَمْسِ الْحَوَاسُّ، وَهِيَ: اللَّمْسُ، وَالذَّوْقُ، وَالشَّمُّ، وَالسَّمْعُ، وَالْبَصَرُ.
وَالْأَصْلُ الثَّانِي: قَوْلُهُمْ حَسٌّ، وَهِيَ كَلِمَةٌ تُقَالُ عِنْدَ التَّوَجُّعِ. وَيُقَالُ: حَسِسْتُ لَهُ فَأَنَا أَحَسُّ، إِذَا رَقَقْتُ لَهُ، كَأَنَّ قَلْبَكَ أَلِمَ شَفَقَةً عَلَيْهِ.
وَمِنْ هَذَا الْبَابِ وَلَيْسَ بَعِيدًا مِنْهُ الْحُسَاسُ، وَهُوَ سُوءُ الْخُلُقِ.ا.هـ.

ولا ينبغي أن يكون بينهم التكلف، والخوف والقلق من الوقوع في الزلل والخطأ.

يقول أحد الحكماء: الصداقة التي تدور بين الرغبة والرهبة شديدةُ الاستحالة، والزلة فيها غير مأمونة، وكسرها غير مجبور[١].

فينبغي أنْ يأخذَ كل صديقٍ من صديقه الأمان على أمور لا تصح ولا تدوم الصداقة الحقة إلا بها:

١ ـ المصارحة والمناصحة وعدم المجاملة في توضيح العيوب والأخطاء.

٢ ـ الأمان والطمأنينة التامةُ من عدم حدوث القطيعة والغضب وتكدر المزاج حال حصول أمرٍ يكرهه أحدهم، بل يأخذه على حسن نية، ثم إذا وجد الفرصة فيما بعد مناسبة صارحه بأنه لا يرغب ذاك التصرف، ويتقبل الآخر منه ذلك.

٣ ـ الاحترام والأدب، وأن الصداقة لا تعني كسر هذا السياج المنيع.

(١) الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، ص٢٩.

علاج سوء الظن

وبعد أنْ تعرَّفنا على خطر الظنِّ السيئِ وقُبحه وإثمِه، بقي علينا أنْ نعرف أسباب تجنُّبه والخلاصِ منه، وهي كما يلي:

أولًا: أنْ يدعو ـ المصاب بسوء الظن ـ اللهَ دائمًا بألا يجعل في قلبه غلًا للذين آمنوا، فسوء الظنِّ هو أعظمُ أسباب الغل والحقد على الناس.

ثانيًا: أنْ يُصارح مَن وجد في نفسه عليه، أو اعتقد فيه أمرًا يُضايقه، فالْمُصارحةُ تُزيل آثار الحقد والغل، والظَّنِّ والوهم، فكم مِنْ إنسانٍ ظنَّ بأحدٍ ظنًّا سيِّئًا، فلمَّا صارحه بذلك تبيَّن لهُ أنه واهمٌ في ظنِّه، فارْتاح فؤاده، ونجى من الإثم جرَّاءَ ظنِّه.

ثالثًا: أنْ يُحسن الظنَّ بالناس، ولا يُشغلَ نفسه بمقاصدهم ونيَّاتهم، ولْيُفكر طويلًا قبل أن يَحكم أو يَتَّهم، ولئن تُخطئ بحسن الظن أهونُ من أن تُخطئ بالتسرع بسوء الظن.

رابعًا: أنْ يلْتمس المعاذير للناس، ويتركَ تتبعَ العورات، واقْتناصَ الزلات.

خامسًا: أنْ يدعو لمن ساء ظنُّه به، وأنْ يُحسن مُعاملته معه، قال العلامةُ الغزاليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وإذا خطر لك خاطر بسوءٍ على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاتِه وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك الخاطرَ السوءَ خوفًا مِن اشتغالك بالدعاء.ا.هـ.

ويجدُر بنا في هذا المقام أنْ نتعرَّضَ لتفسير آيةٍ من سورةِ الحجرات التي نهى الله تعالى فيها عن سوء الظن:

تفسير قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]

قال الحافظُ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنينَ عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقاربِ والناسِ في غير مَحَلِّه؛ لأن بعض ذلك يكون إثما محضًا، فلْيَجْتَنِبْ كثيرًا منه احتياطا، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملًا. ا. هـ[1].

وبعد أن نهانا ربنا تبارك وتعالى عن كثيرٍ من الظنون، نهانا عن التجسس فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾؛ أي: خذوا ما ظهر من أحوال الناس، ولا تبحثوا عن بواطنِهم أو أسرارِهم، أو عوراتهم ومعايبهم، فإن من تتبع عورات الناس فضحه الله تعالى.

والتجسس هو من آثار الظن؛ لأنَّ الظنَّ يُحرِّضُ عليه، حين تدعو الظَّانَّ نفسُه إلى التَّحقُّقِ والتَّأكُّدِ مِمَّا ظنه.

والتجسس: هو البحث عن أسرار الناس بوسيلةٍ خفية، وهو نوعٌ من الكيد والتطلع على العورات.

وقد يرى الْمُتَجَسِّسِ من الْمُتَجَسَّسِ عليه ما يسوؤه، فتنشأ عنه العداوة والحقد، ويدخل صدرَه الحرجُ والتخوفُ، بعد أن كان خاطرُه

(١) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة ٧/ ٣٧٧.

وضميرُه سَلِيْمًا تجاهه، وذلك من نكد العيش، ومن المآسي التي يجنيها صاحبُ الظُّنون السَّيِّئَة.

وذلك ثلمٌ للأخوة الإسلامية، وهو يبعث على الانتقام.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ والغيبةُ من آثار الظنِّ أيضًا، فمن ظنَّ بأخيه سوءًا اغتابه غالبًا، وقدَحَ فيه وفي أمانته وخُلُقه.

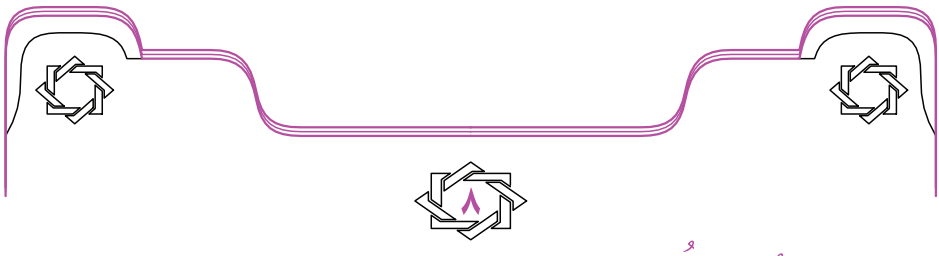

٨

مُراعاةُ مشاعره في حال فرحه وترحه

أيها الصديق إذا جاء صديقَكَ أمرٌ يُفرحه فبادر بِتَهْنِئَتِه، وإذا حصل له أمرٌ مُحْزنٌ فبادر بتعزيته، وتخفيفِ مُصابه وألَمِه.

ثبت في الصحيحين[(١)] أنّه حينما تاب الله تعالى على الثلاثة الذين خُلِّفوا، وكان مُقاطَعين من الصحابة جميعًا، فلمَّا نزلتْ توبتُهم، أقبل كَعْبٌ رضي الله عنه مُسرعًا للمسجد للقاء رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، قال: وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ!.

انْظر إلى فطنةِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ رضي الله عنه، وكيف اسْتغل هذه الفرصة لِتَهْنِئَتِه ومُشاركته فرحتَه، ولك أنْ تتخيَّل هذا المشهدَ الذي لم ينسه كعبٌ لطلحة حينما أقبل والناس جلوس، فقام هو من بينهم يُهَرْوِلُ مُسرعًا فصَافَحَه وَهَنَّأه!.

فحُقَّ له أنْ يقول: وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ!.

إنَّ وقوفَك معه في أتراحه وأفراحه لهُ وقعٌ كبيرٌ جدًّا عليه، لا ينساه أبدًا، والعكس كذلك، خُذلانك له، أو تكاسلك عن مُشاركته في همومه

(١) البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٧١٩٢).

وأحزانه، أو سروره وأفراحه يُؤثر عليه تأثيرًا بالغًا، ويرى تخاذلك وتكاسلك أكبرَ علامةٍ على ضعف مودَّتك، ورداءةِ صُحْبتك.

ومن مُراعاة مشاعره في حال فرحه وترحه: عدمُ مُؤاخذته إنْ بدا منه ما لا ينبغي، أو تجاوز في قوله، أو تعدَّى في فعله، ولْيعذُرْه صديقه في هذه الحالة.

٩

زيارتُه دون إكثارٍ أو إثقال

ينبغي للصديق أنْ يَزور صديقه إذا طال الفراق، أو يتَّصل عليه على أقل الأحوال، فإن الإبطاء في وصاله له أثرٌ كبيرٌ في حصولِ الجفوةِ والفتور في الصحبة.

إنَّ الْـمُـحـبَّ إذا تـقـادم عـهـده ... نسي الحبيب وسامَ صاحبَه القِلَى[1]

لكن بشرط ألا تُكثرَ عليه من الزيارة والجلوس:

أقـلـل زيـارتـك الـصـديـ ... ـق يـراك كـالـثـوب اسـتـجـده

إنَّ الـصـديـقَ يُـمِـلُّـه ... ألَّا يـزال يـراك عـنـده

فبعضُ الأصدقاء يُثقل على صديقِه بكثرةِ مُكالَمَاته أو زياراته، أو بطولِ جلوسِه أو حديثِه معه.

(١) قَلَى فلانًا: أبغضه وهجره. قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ٣].

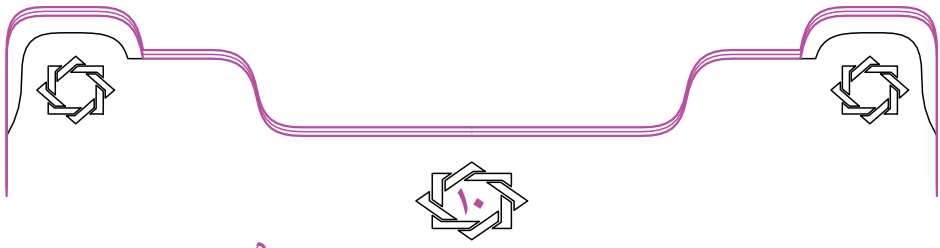

١٠

ألا تكثر عليه المزاح والهزْل

مَن أكثر المزاح والهزْل مع صديقه فلا بدّ أنْ يُحدث شرخًا في الصداقة والْمودَّة.

مازح صديقك إنْ أَرَادَ مِزَاحا ... فإذا أباه فلا تَزِدْهُ جِمَاحا
فَلَرُبَّما مَزَحَ الصَّديقُ بِمَزحةٍ ... كانت لِبَدْءِ عَداوةٍ مِفْتاحا

ولْيُعلَم أنَّ العاقلَ لا يتسبَّبُ في جلبِ أعداءٍ له، بخلقِ مشاكلَ معهم، أو بعدمِ مُداراتِهِم والصبرِ على أذاهُم.

والحكيمُ اللَّبيب: لا يُحوِّل أصدقاءه أعداءً، بِفعلِ أمرٍ يُغضبهُم، أو بعدمِ تحمُّلهم والصبرِ على ما يصدُرُ منهم.

والمؤمن الموفق المسدد: من يُحوِّل أعداءه إلى أصدقاء، بأنْ يُقابل السيّئةَ بالحسنة، ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥].

وإنَّ أقْصَرَ طريقٍ لجلب العداوة، وتمزيقِ رباط الأُخوَّة والصداقة: الإفراطُ في المزاحِ والجدال، فكم بِسببهما وقعتِ الفرقةُ بين الأقارب والأصدقاء، وشُتِّتَ شملُ المتحابين والأخلاء، وعن طريقهما حلَّ الحزنُ والوحشةُ في القلوب، ووقع الناس في الآثام والذنوب.

أَمَّا الْمُزاحةُ والْمِرَاءُ فَدَعْهُمَا ... خُلُقَانِ لا أَرْضَاهُمَا لِصَدِيقِ

إني بَلَوْتُهُمَا فَلَمْ أَحْمَدْهُمَا لِمُجَاوِرٍ جَارًا وَلا لِرفِيقِ

فكم دار الحديث في المجالس، فتحوَّل الحديث الهادئ الأخويّ، إلى جدالٍ شديدٍ وتعصُّبٍ كلِّ طرفٍ لرأيه، فتنتهي الجلسةُ والقلوبُ مشحونةٌ حنقًا وغيظًا، والخواطرُ مُنغَّصة.

وشأْنُ المزاح كذلك، يَمْضِي الأصدقاءُ زمنًا طويلًا في صداقةٍ ومحبَّة، فتبدأُ شرارةُ الفرقةِ والكراهيةِ بمزحةٍ قاسيةٍ.

ويا رُبَّ مزحٍ عاد وَهْوَ ضَغَائِنُ

والمراد بالمزاح المحمود: الملاطفةُ والمؤانسة، وتطييبُ الخواطر، وإدخالُ السرور، فإذا خلا المزاحُ من ذلك: فليس هو بمزاحٍ محمود، بل هو اسْتهتارٌ واسْتخفافٌ بالناس، وإنْ زعم أنه يُمازحُ ويُداعب.

وقد كان المزاح من هدي النبي ﷺ، فقد كان يُمازح أصحابه ويُداعبَهم، حتى قالوا له: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا، قَالَ: إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا[1].

ولا شك أن التبسط مطلوبٌ ليطردَ عن النفسِ السآمةَ والملل، ويُريحَ الجسم من التعب والكلل، وتَطْيِيْبُ المجالسِ بالمزاحِ الخفيفِ فيه خيرٌ كثير، **ولكن بضوابطَ وآدابٍ مِنْ أهمِّها:**

أولًا: ألا يشتمل على شيءٍ من الاستهزاء بالدين.

ثانيًا: أنْ يكون المزاحُ صِدْقًا وحقًّا.

ثالثًا: ألا يكون فيه استهزاءٌ وغمزٌ ولَمْزٌ.

واعلم ـ أيها الصديق ـ أنَّ من أخطر المزاح وأقبحِه: أن تسخر من خِلْقةِ صديقك أو هيئتِه.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٨٤٨١)، والترمذي (١٩٩٠)، وصححه الألباني.

فهذا المزاحُ يُدخل الأذى في نفسه، حيث إنَّ خِلْقةَ الإنسان ليست بيده، وإنما هي صنعُ الله تعالى، وما أقرب هذا المازح من أنْ يُبتلى هو أو أحدٌ من أبنائه بما عاب به غيرُه، فالبلاء مُوكلٌ بالمنطق.

ويجب على الصديق أن يكون أديبًا حكيمًا في مزاحه، يراعي مشاعر الأصدقاءِ وأحوالَهم، وإذا أراد أن يمازح أحدًا فلا يُزْعِجْه ويُغْضِبْه، وكثيرٌ من المزاحِ يكون فيه ضحايا جرَّاء ذلك، حيث يبدأ بالتعليق على أحد الحاضرين، بأسلوبٍ تعافُه النفس، وتشمئزُّ منه الطباع البشرية، وإنَّما النَّارُ من مُسْتَصْغَرِ الشَّررِ.

وبعض الناس متخصصٌ في هذه القضية، مُتفنِّنٌ في جعلِ الآخرين أضحوكةً، يهزأ ويسخرُ بهم في المجلس، ويجعلهُم فكاهةً بين الناس، وهذا حرامٌ إذا لم تتيقن أنه يتقبَّل مثل ذلك.

وإنْ كان يتقبَّل ذلك، فأقلُّ أحوالها الكراهة؛ لأنه لا يخلو هذا التعليقُ من سُخريةٍ أو كلامٍ بذيء، وإنْ تقبَّل ذلك ليومٍ أو يومين، فلن يتقبَّل ذلك على الدوام.

يا رُبَّ هزلٍ كان منه الجِدّ ورُبَّ مزحٍ كان منه الحقد

ولْيعلمْ هؤلاء، أنَّ الإكثار من الكلام الطيب يكون مُمِلًا أحيانًا، فلو أنَّ شخصًا كلَّما قابلك قال لك: إني أحبك في الله، أو أنت كريمٌ وشُجاعٌ، لَمَلَلْتَ من ذلك، ورأيت أنه قد يكون يستخفّ بك، فما الظن بالتعليق الشديد على صاحِبك، ولمزِه وعيبِه أمام الناس، وصدق الشاعر:

أَفِدْ طبعكَ المكدودَ بالجدِّ راحةً يُجِمُّ وعللّهُ بشيءٍ من المزْحِ
ولكنْ إذا أعطيتَهُ المزحَ فليكنْ بمقدارِ ما تعطي الطعامَ من الملحِ

رابعًا: ألا يكون فيه ترويعٌ له، وما أقبح المزاح الذي فيه ترويعٌ

للناس، ورُبَّما وصل الأمر إلى إلحاق الأذى والرعبِ، وكلُّ هذا باسم المزاح مع الصديق.

وكم أَحْدَثَ هذا المزاحُ من آثارٍ سيِّئةٍ على النفوس، وكم تفرَّق الأصحابُ والأصدقاءُ بسببه.

وقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا**»(١).

وقد وصل المزاحُ ببعضهم، أنْ ألقى صديقه في بركةِ ماء، وهو لا يحسن السباحة، وبعضُهم يُطارده بالسيارة، أو يُفاجئه بها على حين غفلة.

وكم هي الْمآسي والفجائع التي حصلتْ، بسبب مثل هذا المزاح القبيح الْمُستهجَن، الذي يكشفُ عن فساد ذائقةِ ذلك المازحِ، وسفاهةِ عقله والله المستعان.

خامسًا: معرفة مقدار الأصدقاء، فالبعضُ من الناسِ يمزح مع كلِّ أحدٍ دون اعتبار، فالأصدقاء تختلفُ طِباعُ ومكانةُ كلِّ واحدٍ عن الآخر، ويجب أيضًا معرفة شخصية المقابِل، فيَمزحُ معه على حسب ما يُناسب طِباعه ومكانته وتقبُّله.

سادسًا: ألا يكون المزاحُ كثيرًا، فإن بعض الناس يغلب عليهم هذا الأمر، ويصبح ديدنًا لهم، وهذا عكس الجدِّ الذي هو من سمات المؤمنين، والمزاحُ إنما هو فسحةٌ ورخصةٌ، للترويح عن النفس وتنشيطها، أما أنْ تكون سمةً بارزةً للإنسان، فهذا لا يليق أبدًا.

سابعًا: اختيار الأوقات المناسبة للمزاح، كأن يكون في رحلة برية، أو عند ملاقاة صديق، فلا بأس بالتَّبسط معه بطرفةٍ لطيفة، أو مِزحةٍ

(١) رواه الإمام أحمد (٢٣٠٦٤).

خفيفة، لتُدخل السرور والراحةَ على قلبه، فالمزحُ في غيرِ وقته، كالمزح وقتَ الجدِّ، أو حينَ لا يكون الصديقُ مُتهيِّأً له: يكون مُضرًّا وجالبًا للعداوة.

ثامنًا: ألا يكون فيه فحش وبذاءة، فبعض النكت عبارةٌ عن قلة حياء، وقلةِ أدب ومروءة، يأتي أحدُهم بطرفةٍ فيها تصريحٌ بالعورات المغلظة، أو بقضاءِ الوطر ونحو ذلك من الكلام الغير مُحتشم، واللهُ تعالى لا يحب الجهر بالسوء من القول، ويكره كلَّ فاحشٍ بذيءٍ.

وأخيرًا، فلا بد أنْ يُعلم أنَّ المزاحَ قنطرةٌ[1] قصيرةٌ إلى البغي والإثم، فمتى أكثر الإنسان من الهزْل، جرَّه ذلك إلى الوقوع في أعراض الناس، والعبثِ بمشاعرهم، والاستهتارِ بكثيرٍ من الأمورِ الْمُصانة، وإنَّ كثرة المزاح تفقدُهُ أنسَه وبهجته، وتنقلُه إلى حدِّ السماجة الْمُسْتَثْقَلَة، وربما الوقاحةِ الْمُسْتَنْكَرة.

وستبقى الفضيلةُ وسطًا بين رذيلتين.

ولا تَغْلُ في شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ واقتصدْ كِلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذَميمُ

فلا ينبغي الجهامةُ والقطوب، والتوافرُ الثقيل، التي تَجعلُ صاحبها ثقيلًا بغيضًا، لا يأنس أحدٌ بصحبته، ولا يَطمعُ أحدٌ بِمُجالسته.

ولا ينبغي كذلك: السماجَةُ والمزاحُ العابث، فيكونُ صاحبُه منزوعَ الهيبة، مسلوبَ الكرامة، بل الصوابُ أنْ نتحلَّى بالسماحة والرزانة، وحسنِ الخلقِ والبشاشة.

ومِمَّا ينبغي على الصديق أنْ يجتنبه في مزاحه مع صديقه: المزاح معه عند الغرباء، فالصديق يَقْبَلُ مزاحك ويرضى به، لكنْ عند الغرباءِ

(١) القَنْطَرَةُ: جسر مُتَقَوِّسٌ مبنيٌّ فوق النهر يُعبر عليه.

والآخرين قد يُصابُ بالحرج، وقد تخرج منك كلمةٌ على حين غفلةٍ تُكدِّر خاطره، ويعتبرها واضعةً لقدره، مُنْقِصَةً من مكانته.

زنِ القولَ من قبل الكلام فإنما يدلُّ على قدر العقول التكلُّمُ

والأولى أنْ تُمسك عن المزاح معه حتى تتأكَّدَ من تقبُّلِهِ للمزاح، ويكون بقَدَرٍ واحتراز.

ولئن ندمتُ على سكوت مرةً فلقد ندمتُ على الكلام مرارًا

ومن عجيب بعض الأصدقاء: أنه لا يحتمل من صديقه المزاح، وهو يمزح معه، وربما زاد واعتدى في مزاحه، وكأن المزح حلالٌ عليه حرامٌ على غيره.

فهو يُسْمِعُنا، ولا يُريد أنْ يسمع منَّا؟

ومنهم مَنْ سَمِعْنا ما لَدَيه ويَغْضَبُ حِيْنَ يسمعُ ما لدينا
فإنْ يَكُ فِعْلُهُمُ سَمِجًا وَفِعْلِي قَبِيْحًا مِثْلُه فَقَدْ اسْتَوينا

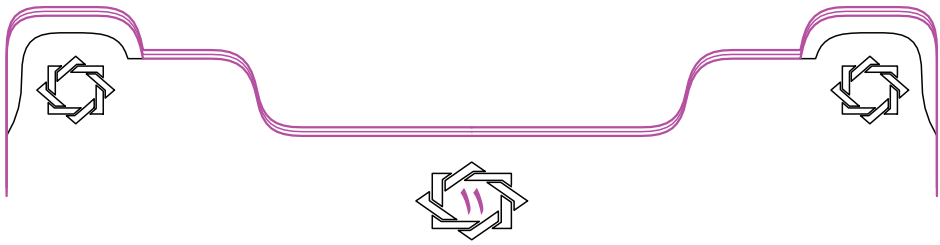

١١

ألا يُعاتبه على أمرٍ يتوجَّسُ منه دون غيره

بعض الأصدقاء يتحسَّسُ من كلمةٍ أو عبارةٍ معيَّنةٍ، أو فعلٍ أو سلوكٍ معيَّنٍ، هو ليس في نظر الآخرين بخاطئٍ ولا سيِّء، ولكنه هو بنفسه يراه خطًا فادحًا، وذنبًا قبيحًا، فيُفاجئُ صديقه بعتابه، ولومِه على قوله أو فعله.

وهذه مشكلةٌ تحدث كثيرًا، فكيف بالصديق أنْ يعلم أنّ صاحبه لا يُحب مثل ذلك؟، وهل كلَّما أراد أن يقول أو يفعل شيئًا اسْتشار صاحبه عنه؟.

أحدُهم يُذَكِّر صاحبَه بأمرٍ اتَّفَقا عليه، وماطل صاحبُه في تنفيذه، فأرسل له قائلًا: لا تنسَ أنك الْتزمْتَ ووافقتَ على شروطنا، والمؤمنون على شروطِهم، فغضب من هذه العبارةِ، وقال: أزعجتني عبارتك هذه، ولو قلتَ أيَّ شيءٍ غيرَها لكان أهون!!.

فقال صاحبُه: هل العبارة في ذاتها خطأٌ عند جميع العقلاء؟ أم أنك وحدك تكرهُها؟ فاسْتحيا وقال: بل أنا لوحدي أكرهُها!، فقال: وما يُدريني أنها تُزعجك؟ فرضي واعتذر.

وآخرُ يستقرضُ من صاحبِه مبلغًا، وتعهَّد عليه ألا يُكلِّف نفسه أنْ يستقرض من أحد، فلمَّا لم يجد عنده المبلغ الذي طلَبَ، اتَّصل بأحد رجال الأعمال، فوافق على إقراضِ صاحبه قرضًا حسنًا، فأخبر صديقه بفرحٍ بما فعله.

فعاتبه عتابًا شديدًا، وأنَّبه على فعله!.

وصديقه ما أراد إلا الخير والإحسان له، فقد اعتصر قلبُه حين لم يجد المبلغ بين يديه، فهل يقف مكتوف اليدين مع صديقه الحبيب؟.

وإنِّي لأستحيي من الله أن أُرى بحالِ اتِّساعٍ والصديقُ مضيقُ

فهل مَن أحسن ـ ولو أخطأ في الوسيلة ـ يُعاتَب وُيَعنَّف؟؟.

وقد تقول: هو تضايق حينما عَلِمَ أحدٌ بحاجته، فلماذا يُخبر غيره بذلك؟.

أقول: وما يُدري صاحبه بما تُكنّه نفسه، وما عليه طبعه، فهو ظن الناس مثله لا يتحرجون من ذلك.

وأمرٌ آخر، أليس الأولى أنْ يبتسم في وجهه، ويُطيِّبُ خاطرَه، ويُخبره بأنَّ الأولى ألا يفعل ما فعل؟، أليس ذلك أولى من غضبه وعتابه؟.

هَبْنِي أسأتُ كما زعمتَ فأين عاقبةُ الأخوة
وإذا أسأْتَ كما أسأتُ فأين فضلك والمروَّةَ

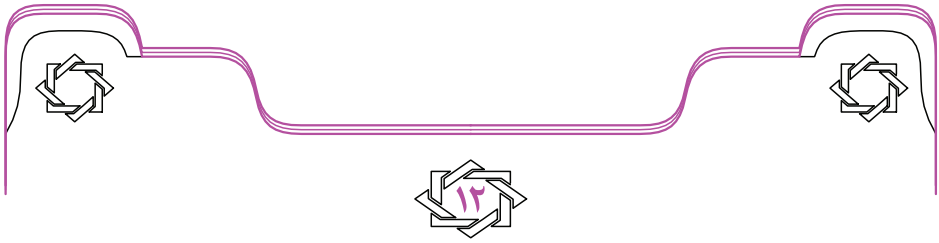

١٢

ألا يُبالغ في المحبة والرغبة، والكراهة والنفرة

ما أكثر مَن إذا أحبَّ شيئًا بالغ في محبَّته، وإذا أبغضه بالغ في بُغضه، وهذا الحب أو البغض قد يكون لشخصٍ أو عملٍ أو غير ذلك.

أعرف شخصًا فيه هذا الطبع، فكنت كثيرًا ما أحذره منه، وأنصحه في التوسط والاعتدال في حبه وبغضه، لكنه يأبى أنْ يُغير طبعه، فأحبَّ صديقًا له محبَّةً كبيرة، فأصبح يأخذه كلَّ يوم هنا وهناك، حتى أدخله شريكًا له في تجارة له، فنصحتُه في عدم الْمُبالغة في هذه الصحبة، والإكثار عليه في الذهاب والإياب.

فما هي إلا أيامٌ حتى عافه وملَّه، وأصبحت بينهما نفرةٌ وقطيعة.

وهكذا كانت طريقته مع بعضِ أصحابه، فبعضهم قاطعه وكرهه، وبعضهم هجره وتركه.

بل وفعل كذلك في عمله، حيث دخل في مشروعٍ درَّ عليه مالًا كثيرًا، فبالغ في تفريغ وقته لأجله، فما هي إلا أشهرٌ حتى ترك عمله، وحصلت خلافاتٌ كثيرةٌ مع الأطراف الْمُتعاقدة معه.

كم جرَّ عليه هذا الحبُّ والبغض الْمُفرط من الشقاء والأذى.

وقد صدق القائل: لا يُفْرِطِ العاقلُ في محبةِ الصديق، ولا يَتَجاوزْ في عداوة العدو، فإنه لا يَدري متى تنتقلُ صداقةُ الصديق عداوة، ولا متى تَنتقل عداوةُ العدوِّ صداقة.

ومن جيد ما قيل في هذا المعنى قول بعضهم: لا تكن مكثرًا ثم تكون مُقلًّا، فيُعرف سَرَفك في الإكثار وجفاؤك في الإقلال[١].

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عسى أن يكون حبيبك يومًا ما[٢].

وعن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: لَا يَكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا وَلَا بُغْضُكَ تلفًا. فقال زيد بن أسلم: كَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: إِذَا أَحْبَبْتَ كَلِفْتَ كَلَفَ الصبي، وإذا أبغضت أحببت لصاحبك التلف[٣].

وقال بعضُ الحكماء[٤]: إذا أقبل عليك مقبلٌ بودِّه فسرك ألا يُدبر عنك، فلا تُكثر الإقبالَ عليه، فالإنسان من شأنه التَّباعدُ ممَّن قرب منه، والدُّنوّ ممَّن يَتَباعد منه.

وقيل: من أحببت فلا تأمنه، ومن أبغضت فلا تهجره.

فأمسك نفسك إذا رأيت منها رغبةً وحبًّا لأحد الأصدقاءِ مهما كان؛ لأنك لا تدري لعل الذي أحببته يكون يومًا مصدر قلقٍ وإزعاجٍ عليك، فتأتيك حسرةٌ شديدةٌ على الوقت والحب الذي أعطيته إياه.

وأمسكها إذا رأيت منها كرهًا وبُغضًا لأحدهم؛ لأنك لا تدري لعل الذي أبغضته يكون يومًا زميلًا لك في عمل، أو تحتاج إليه.

يقول ابن الجوزيِّ رحمه الله: مما أفادتني تجارب الزمان، أنه لا ينبغي

---

(١) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ٢/ ١٨٤.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٣٢١)، وحسن إسناده الألباني في تعليقه على الأدب.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٣٢٢)، وصحح إسناده الألباني في تعليقه على الأدب.

(٤) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/ ٣٣٧.

لأحدٍ أن يُظاهر بالعداوة أحدًا ما استطاع؛ فإنه ربما يحتاج إليه.

وإن الإنسان ربما لا يظن الحاجة إلى مثله يومًا ما، كما لا يَحتاج إلى عُوَيْدٍ منبوذ، لا يُلتفت إليه؛ لكنْ كم من مُحْتَقَرٍ اُحْتِيْجَ إليه! فإذا لم تقع الحاجة إلى ذلك الشخصِ في جلب نفع، وقعت الحاجةُ في دفع ضر.

ولقد احْتجت في عمري إلى ملاطفةِ أقوام، ما خطر لي قطُّ وقوعَ الحاجة إلى التلطف بهم.ا.هـ[1].

ومن أعظم ما يجده من أحب صديقه حبًّا مُبالغًا فيه: الحسرة والأسى حين يرى من صديقه جفوة، أو إعراضًا أو هُجرانًا.

(١) صيد الخاطر، ص٢٣٠.

تجربة ابن حزم ونصيحته في ذلك

يقول ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: أن بعض من خالصني المودة وأصفاني إياها غاية الصفاء في حال الشدة والرخاء والسعة والضيق والغضب والرضى، تغير علي أقبح تغير بعد اثني عشر عامًا متصلة في غاية الصفاء، ولسبب لطيف جدًا ما قدَّرتُ قط أنه يؤثر مثله في أحد من الناس، وما صلح لي بعدها، ولقد أهمني ذلك سنين كثيرة همًا شديدًا.

فلا تستعجل مع هذا سوء المعاملة فتلحق بذوي الشرارة من الناس وأهل الخب[1] منهم.

ولكن ها هنا طريق وعرة المسلك شاقة المتكلف... يُحْرِزُ صاحبها صفاء نيات ذوي النفوس السليمة والعقود الصحيحة البراءُ من المكر والخديعة، ويحوي فضائل الأبرار وسجايا الفضلاء، ويحصل مع ذلك على سلامة الدهاة وتخلص الخبثاء ذوي النكراء والدهاء، وهي أن تكتم سرَّ كلِّ من وثق بك، وألا تفشي إلى أحدٍ من إخوانك ولا من غيرهم مِن سرِّك ما يمكنك طيُّه بوجه ما من الوجوه وإن كان أخص الناس بك، وأن تفي لجميع من ائتمنك، ولا تأتمن أحدًا على شيء من أمرك تشفق عليه إلا عن ضرورة لا بد منها، فارتد حينئذ واجتهد وعلى الله تعالى الكفاية. وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم

(١) الخِبُّ: الخِداع، والخِبُّ من الناس: الخَدَّاع الماكر.

يسألك، ولكل من احتاج إليك وأمكنك نفعه لم يعتمدك بالرغبة. ولا تُشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك ﷻ.

وعامِلْ كلَّ أحدٍ في الأُنس أجمل معاملة وأضمر السلو عنه إن حلت بعض الآفات التي تأتي مع مرور الأيام والليالي تعش سالمًا مستريحًا[1].

(١) رسائل ابن حزم، ص٣٥٩ ـ ٣٦٠، مع بعض التصرف.

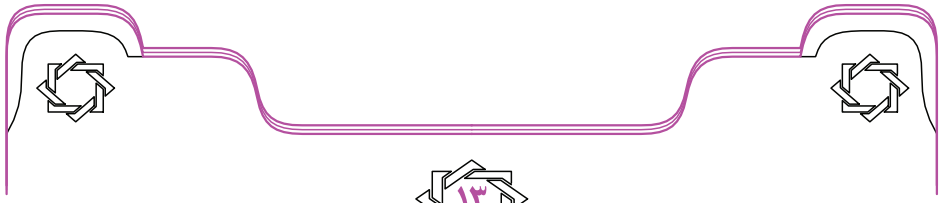

١٣

عدمُ التكلُّف في كتمان المشاعر أو إبدائها

كم تجتاح أحدَنا أحاسيسُ ومشاعرُ جيَّاشةٌ، تجاه أحدٍ من الناس أسدى لنا معروفًا، أو رأينا منه ما يُعجبنا ويُبهجنا، فتثور في القلب عبارات الثناء والمدح، فنكتُمها ونبخل بها، حياءً أو عدمَ جُرأةٍ في إبدائها، والأدهى من ذلك إذا كان خوفًا أنْ يَغتر من هذا المدح، أو يُصاب بالإعجاب والغرور!.

كم أدى هذا التأويل والتكلُّف الفاسد إلى تثبيط الهمم، والجفاء بين الناس، وعدم الاستمرارية في الإبداع والعمل؛ نتيجةً لفقد رافدٍ مُهمّ، وهو التشجيع والثناء الصَّادق.

ومن أخص من ينبغي لنا أنْ نُظهر لهم مشاعرنا الجميلة تجاههم: الأصدقاء الأوفياء، فهم يستحقُّونها، وهي حقٌّ من حقوقهم، مهما تقادمت وقويتِ الصداقة.

لكن التكلف في إبداء وإظهار المشاعر لا ينبغي، فخير الأمور أوسطها، فإنَّ ذلك يُؤدي إلى عدم التلذذ بسماعها، وعدم الحفاوة والمبالاة بها، حيث أصبحت ديدنًا وعادةً لقائلها.

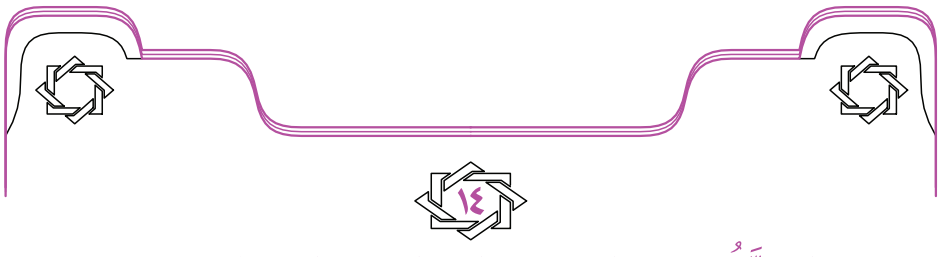

١٤

الهديَّةُ بشرط عدمِ المبالغة والتكلف فيها

لا شك أنَّ الهدية من أعظم أسباب تقوية المحبة والمودَّة، وزيادة التقارب والألفة، ولذلك قال ﷺ: «**تهادُوا تحابُّوا**»[(١)].

ما أجمل أنْ تُهْدي ـ أيها الصديق ـ لصديقك هديةً حين يقدُم من سفره، أو يُشفى مِن مرضه، أو حين زواجه.

قال بعضُهم: الهدية تردُّ بلاءَ الدنيا، والصدقةُ تردُّ بلاء الآخرة[(٢)].

إن الـهـديـةَ حُـلْـوَةٌ ... كالسحرِ تَجْتَلِبُ القلوبا
تُدني البعيد من الهوى ... حتى تُصَيِّرَهُ قريبًا

ولكن ما انْقَطعتْ هذه السُّنَّة الطيبة، إلا حينما تكلَّف الأصدقاءُ وبالغوا فيها.

فبعض الأصدقاءِ يُحبُّ أنْ يُهدي لأحدٍ أسدى له معروفًا، أو يُكافئه على بذله وجُهده، فيحتار في الهدية التي سيُقدِّمها له، فتمضي الأيام وهو يُفكر في نوع الهدية، أو ينتظر حتى يجمع بعض المال الذي يشتري بها الهدية، فربَّما قلَّ حماسُه ونشاطه مع مرور الأيام فيتركها، ولو أنه علم أن الهدية للتعبير عن حبِّه وتقديره له، لا أنها ثمنٌ لقدره ومنزلته لَمَا تكلَّف هذا التكلف.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٦٣/ ٥٩٤)، وحسَّنه الألباني.
(٢) التذكرة الحمدونية ٢/ ٤٢.

ومن مفاسد التكلف في الهدية: أنها تشق على الْمُهدي والْمُهدَى إليه، فأما الْمُهدي فواضح.

وأما الْمُهدَى إليه فإنه إذا أرد أنْ يُهدي له بعد ذلك فلن يردّ بأقل من هدية صاحبه، وربما كان قليل المال.

وذلك كان ﷺ يُؤكد هذا المعنى، وهو عدمُ التكلُّفِ في الهدية.

فقَالَ: «**لَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ**». رواه البخاري[(١)].

بل ويأمر بإهداء اليسير غيرِ الْمُتكلَّف، ليعتاد الناس على الهدية ويستسْهلوها.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ**». متفق عليه[(٢)].

قال الحافظ رحمه الله: (فِرْسِن) هُوَ عَظْم قَلِيل اللَّحْم.

أَيْ: لَا تَمْنَعُ جَارَة مِنْ الْهَدِيَّة لِجَارَتِهَا الْمَوْجُودَ عِنْدهَا لِاسْتِقْلَالِهِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَجُودَ لَهَا بِمَا تَيَسَّرَ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ الْعَدَم، وَذِكْر الْفِرْسِن عَلَى سَبِيل الْمُبَالَغَة.

وَفِي الْحَدِيث الْحَضّ عَلَى التَّهَادِي وَلَوْ بِالْيَسِيرِ؛ لِأَنَّ الْكَثِير قَدْ لَا يَتَيَسَّر كُلّ وَقْت، وَإِذَا تَوَاصَلَ الْيَسِير صَارَ كَثِيرًا.. وَفيه إِسْقَاط التَّكَلُّف.ا.هـ[(٣)].

(١) (٢٥٦٨).
(٢) البخاري (٢٥٦٦)، ومسلم (١٠٣٠).
(٣) فتح الباري ٥/ ٢٤٥.

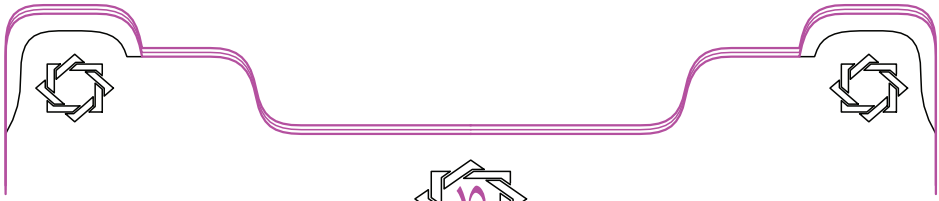

١٥

نقدُه بأسلوبٍ لطيف

النقد في الأصل بغيضٌ إلى النفوس، ثقيلٌ يشقُّ سماعه وقبوله، فإذا نقدْتَّ صديقك دون مُستندٍ صحيحٍ لنقدك، أو نقدَّته بأسلوبٍ جافٍّ أو أمام الآخرين، أو أكثرت من نقده، فسَيَزْدَادُ ثِقَلُه، ويصعُب تحمُّله، وتُعتبر في نظر من نقدتَّه مُعتديًا مُخطأً.

وأنت قد تكون في قرارة نفسك ناصحًا مُشفقًا، لكنك لم تكن بذلك مُصيبًا مُوفَّقًا؛ لأنك لم تأت النقد من بابه، ولم تلتزم بضوابطه وآدابه.

فالنقدُ ثقيلٌ وشاقٌّ بحدّ ذاته، فلا ينبغي للعاقل أنْ يزيده ثِقْلًا بخشونة أُسْلُوبه، وفضاضةِ ألفاظه.

فإذا أراد الصديق أن ينقُد صديقه أو غيره على سلوكٍ أو تصرفٍ خاطئ تجاهه أو تجاه غيره، فلا بد أنْ يلتزم بآداب النقد البنَّاء، وهي:

١ ـ السريةُ التامة حال نقدك، وألا تُخبر أحدًا بعد ذلك بنقدك له، فربما وصله الخبر فيتخذَ موقفًا عدائيًّا معك.

٢ ـ أن تُقدِّم بين يديْ نقدك كلامًا جميلًا، وثناءً صحيحًا.

فهذا ربُّنَا جلّ جلاله، يقول مُخاطبًا اليهودَ الضالين الظالمين، الْمَغضوبَ عليهم والْمُكذبين، بعد أنْ عدَّد ما منَّ عليهم من النعم والفضائل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ [البقرة: ٤٧] تأمل كيف نَادَاهُمْ بِاسْمِ أَبِيهِم، الَّذِي هُوَ أَصْلُ عِزِّهِمْ وَسُؤْدُدِهِمْ، وَمَنْشَأُ تَفْضِيلِهِمْ، وَأَسْنَدَ النِّعْمَةَ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا لَا إِلَيْهِ وَحْدَهُ؛ لِأَنَّ النِّعْمَةَ عَمَّتْهُمْ، وَالتَّفْضِيلَ شَمَلَهُمْ، ثُمَّ طَفِقَ يُفَصِّلُ النِّعْمَةَ الَّتِي ذَكَرَهَا مُجْمَلَةً فِيمَا سَبَقَ بِذِكْرِ أُمَّهَاتِ أَنْوَاعِهَا، فَذَكَرَ تَفْضِيلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ بِمَحْضِ كَرَمِهِ وَفَضْلِه.

قال العلامةُ مُحَمَّد رَشِيد رضا رحمه الله تعالى: «وَهَذَا أُسْلُوبٌ حَكِيمٌ فِي الْوَعْظِ، فَيَنْبَغِي لِكُلِّ وَاعِظٍ أَنْ يَبْدَأَ وَعْظَهُ بِإِحْيَاءِ إِحْسَاسِ الشَّرَفِ، وَشُعُورِ الْكَرَامَةِ فِي نُفُوسِ الْمَوْعُوظِينَ، لِتَسْتَعِدَّ بِذَلِكَ لِقَبُولِ الْمَوْعِظَةِ.. ثُمَّ إِنَّ فِي الْوَعْظِ مَا يُؤْلِمُ نَفْسَ الْمَوْعُوظِ، وَحَرَجًا يَكَادُ يَحْمِلُهَا عَلَى النَّفْرَةِ مِنْ تَلْقِينِهِ، وَالِاسْتِنْكَافِ مِنْ سَمَاعِهِ، فَذِكْرُ الْوَاعِظِ لِمَا يُشْعِرُ بِكَرَامَةِ الْمُخَاطَبِ وَرِفْعَةِ شَأْنِهِ، يُقْبِلُ بِالنَّفْسِ عَلَى الْقَبُولِ، كَمَا يُقْبِلُ الْجَرِيحُ عَلَى مَنْ يُضَمِّدُ جِرَاحَهُ وَيُسَكِّنُ آلَامَهُ.

أَلَا وَإِنَّ هَذَا الشُّعُورَ، شُعُورَ الشَّرَفِ وَالرِّفْعَةِ، مُلَازِمٌ لِلْإِنْسَانِ لَا يُفَارِقُهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يَضْعُفُ حَتَّى لَا يَظْهَرَ لَهُ أَثَرٌ، وَفِي تَحْرِيكِ الْوَاعِظِ لَهُ اعْتِرَافٌ ضِمْنِيٌّ بِكَرَامَةٍ وَفَضْلٍ لِلْمَوْعُوظِ يَشْفَعَانِ لَهُ بِمَا يَسْتَلْزِمُهُ الْوَعْظُ مِنْ مَظِنَّةِ الْإِهَانَةِ فَيَسْهُلُ احْتِمَالُهُ وَيَقْرُبُ قَبُولُهُ».ا.هـ كلام العلامةِ محمد رشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

وهذا قدوتنا وإمامنا ﷺ، حينما أراد توجيه نقدٍ لابن عمرَ رضي الله عنهما، أثنَى عليه ثناءً عطرًا قبل نقده فقال: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**»[2].

(١) تفسير المنار ١/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢.
(٢) البخاري (٣٧٣٩)، ومسلم (٦٥٢٥).

٣ ـ أنْ يكون النقد للتصرف الذي قام به ذلك الشخص، لا أنْ يكون النقد للشخص نفسه.

٤ ـ أنْ يكون ختامُ النقد بطريقةٍ ودية، وجملةٍ وعبارةٍ مُحفِّزة، فختام النقد والنصيحةِ بمثل ذلك يُعين على تقبُّلها، وتطييبِ خاطرِ صاحبها المنصوح.

٥ ـ التوازن بين الثناء والنقد، فلا يُعقل أنْ تُكثر من نقدِ أحدٍ مهما كان، دون أنْ يسمع منك ثناءً عاطرًا، أو مدحًا صادقًا.

فالنفس البشرية لا تقبل مثل هذا، وترى أنَّ من ينقُدها ولا يُثني عليها، مُتحاملًا وحاقدًا، أو مُجحفًا مُتتبعًا للزلَّات.

٦ ـ عدمُ الإكثار من النقد لشخصٍ واحد، فالإكثار منه يتحول إلى عداوةٍ أو سآمةٍ.

٧ ـ لزوم الحسنى في المقال، وانتقاء اللفظ، وتخيُّر الكلمات، فما كان اللين في شيء إلا زانه، وما نزع من شيءٍ إلا شانه، والله تعالى أمر رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، فحق الفطن اللبيب ـ في عَرْضه للحق ـ التشبه بالطبيب الْمُشفق، فيرفق وينأى بنفسه عن أسلوب الطعن والتجريح.

واعلم أنَّنا بهذه الضوابط في النقد والنصيحة، نستطيع حينها أنْ نُفرق بين (النقد) و(التجريح)، وبين (النصيحة) و(الفضيحة)، وبين (الصدع بالحق) و(التحامل).

فالنقد والنصيحة والصدع بالحق: هي التي التزم صاحبها بهذه الضوابط والآداب.

والتجريح والفضيحة والتحامل: هي التي حادَ صاحبها عن هذه الضوابط والآداب.

بدون هذه الضوابط في النقد: قد تكون كلمات الناقد سهامًا يرمي بها في قلب من نقده، وسيفًا يقطع به صداقته ومودَّته.

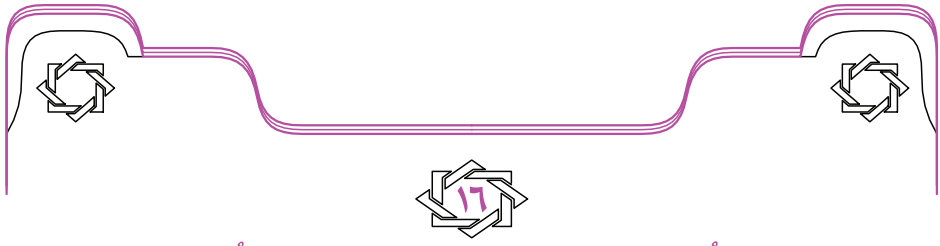

١٦

مُصارحَتُه بعيوبه بأسلوبٍ ليِّن، وتقبُّله لذلك

هذا الحقُّ من أعظم فوائد الصحبة، وإذا لم يتعاهد الأصدقاءُ بعضُهم بعضًا على القيام به فصداقتهم لا تعود عليهم بالنفع والفائدة، وإنما تضييع أوقات.

قال أحدُ السلفِ لصديقه: قل لي في وجهي ما أكره، فإنَّ الرجلَ لا ينصح أخاه، حتى يقول له في وجهه ما يكره[(١)].

وصدق الشاعر:

وقد رمى بك في تيهاءَ مهلكةٍ ... مَن بات يَكتمك العيب الذي فيكَ

نعم، ما قيمةُ الصديقِ إذا لم يكن مرآةً صافيةً لك، ما قيمةُ الصديق إذا لم يُخبرْك بعيوبك لتُصلحها، وأخطائك لِتُصحِّحها؟.

إنَّ من يُخْبِرك عن عيبك: هو مُحسنٌ إليك، ومن يُنبِّهك على أخطائك: هو مُتفضِّلٌ عليك، فكيف تُقابله بالحنق والغضب، أهذا جزاء الإحسان؟، أين نَجِدُ في هذا الزمان من يفعل هذا؟ فهذا هو الناصح حقًّا، وليس الصديق الوفيّ، الذي يراك غارقًا في عيوبك، غافلًا عن أخطائك، وهو ساكتٌ لا يُحرك ساكنًا، وصدق القائل: صديقُك مَن صدَقَكَ لا مَنْ صدَّقك.

(١) الحلية (تهذيبه) ٢/ ٥٤، ولكن كما تقدَّم سابقًا بأسلوبٍ مقبولٍ، ووقتٍ مُناسب.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «رحم الله امرءًا أهدى إليَّ عيوبي»، وكان يسأل سلمان الفارسيَّ رضي الله عنه عن عيوبه، فلما قدم عليه قال: ما الذي بلغك عني مِمَّا تكرهه؟.

فكلُّ مَن كان أرجحَ عقلًا، وأقوى دينًا: كان أحرصَ الناس على معرفة عيوبه، وأحبَّ الناس إليه: مَن يُنبهه على تصرُّفاته وسلوكه.

فقليلٌ في الأصدقاء مَنْ يكونُ مُخْلصًا صريحًا، بعيدًا عن المداهنة والْمجاملة.

قيل لبعض العلماء ـ وقد اعتزل الناس وكان مُنطويًا عنهم ـ: لِمَ امتنعت عن المخالطة؟ فقال: وماذا أصنع بأقوامٍ يُخْفون عني عيوبي.

ولو أن إنسانًا نبهك أن في ثوبك أو في فراشك حيةً أو عقربًا، لشكرته ودعوت له، وأعْظَمْتَ صنِيْعَه ونصيحتَه، وهو كذلك.

ولكن إذا تأملتَ وجدتَّ أنَّ هذه ضررها على البدن فقط، ويدوم ألَمُهَا زمنًا يسيرًا، وأما ضررُ الأخلاقِ الرديئةِ: فهي على القلب والدِّين، ويُخْشى أن يمتدَّ ضررُها إلى ما بعد الموت، ومع ذلك لا نفرح بمن ينبهنا عليها، ولا نشتغلُ بإزالتها.

بل ربما قابلنا نصح الناصح بقولنا له: وأنت فيك وفيك[(١)].

قال بعض السلف: ضربة الناصح خيرٌ لك من تحية الشَّانئ؛ أي: المبغض[(٢)].

فينبغي للصديق أنْ يفرح إذا وُجِّه إليه نقدٌ من صديقٍ ناصحٍ مُشفق، أو قُوبل بنصيحةٍ من مُخلصٍ ناصح، أو صارحه بِمَا يراه ويُلاحظه عليه،

(١) يُنظر: إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد للشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان رحمه الله، ص١٥.
(٢) الصداقة والصديق، ص١٥٠.

من تصرفٍ لا يُحبه، أو كلامٍ لا يُعجبه، وأنْ يتقبل ذلك بصدرٍ رحب.

وكتمان الصديق ما بخاطره قد يتراكم حتى يصل إلى مرحلة الانفجار، فيحدث ما لا تُحمد عُقباه.

فالحلُّ الأمثل أنْ يبوح بذلك، وأنْ يتقبل الآخر منه دون أدنى حرج.

قال أبو حاتمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: ظاهرُ العتاب خيرٌ مِن مَكتوم الحقد، ورُبَّ عَتْبٍ أنْفَعُ من صفح.

إذا مَا امرؤٌ ساءَتك منه خَلِيْقَةٌ ... فكاتَمْتَهُ فالْوَهْنَ في ذاكَ تَرْكَبُ

لعلَّك لو عَاتَبْتَه ثُمْ لُمْتَه ... لسَرَّكَ حتَّى لم تَكُنْ تَتَعَتَّبُ[(١)]

قال ياقوت الحموي: وما أحسن قول العتابي[(٢)] وأحكمه:

لَوْمٌ يُعيذك من سوءٍ تقارفه ... أبقى لعرضك من قولٍ يُداجيكا[(٣)]

ولقد ضرب سلفنا الصالح رحمهمُ الله، أروعَ الأمثلةِ في قبول الحقّ من أيِّ أحدٍ كان، والرُّجوعِ إليه، وعدمِ الحرج من ذلك.

لعلمهم بأنَّ عدمَ الاعترافِ بالحق: هو الكِبْر بعينه، كما قال ﷺ: «**الكِبْر بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناسِ**»[(٤)].

فالمتكبر يرد الحق، ويُعرض عنه ولا يقبله؛ لأنه معتدٌّ برأيه، جازمٌ بصواب عمله، ومع ذلك يحتقر الناس ويزدريهم؛ لأنه يرى نفسه فوقهم.

---

(١) روضة العقلاء، ص١٨١.

(٢) كما في ديوانه، ص١٢٩.

(٣) في الأصل: لُؤْمٌ! وهو خطأ، والتصويب من مُعجم الأدباء لياقوت.
والمداجاة: المداراة والمجاملة.
والمعنى: أنَّ لوم الناس لك على أخطائك وعيوبك أفضل وأحسن لك ممَّن يُجاملك ويُداريك، وهو أسلم لعرضك وسمعتك.

(٤) رواه مسلم (٩١).

وقد سُئل أحدُ الحكماء: ما التواضع؟ قال: ألا تُقابل أحدًا إلا رأيت له الفضل عليك، بكلمةٍ قالها لك، أو معروفٍ أسداه إليك، أو ابتسامةٍ قابلك بها.

إنَّ من يُذَكِّرُنا بأخطائنا، ويُنبِّهُنا على عُيوبنا، قد أسدى لنا معروفًا عظيمًا، فجزاؤه أن نشكرَه ونُثنيَ عليه، ونأخذَ بقوله ونعملَ به، فهذا من علامةِ الإيمان وصفاءِ القلب.

علامةُ شكرِ المرء إعلانُ حمده فمن كتم المعروف منهم فما شكر

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: من علامات الخشوع: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا خُولِفَ وَرُدَّ عَلَيْهِ بِالْحَقِّ: اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِالْقَبُولِ وَالِانْقِيَادِ[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا تَصِحُّ لَكَ دَرَجَةُ التَّوَاضُعِ، حَتَّى تَقْبَلَ الْحَقَّ مِمَّنْ تُحِبُّ، وَمِمَّنْ تُبْغِضُ، فَتَقْبَلُهُ مِنْ عَدُوِّكَ، كَمَا تَقْبَلُهُ مِنْ وَلِيِّكَ.ا.هـ[(٢)].

وسلفنا الصالح رحمهم الله يفرحون بمن يُخبرهم بأخطائهم وعُيُوبهم، ويتمنى بعضُهم أنْ لو كان غنيًّا، فيُكافأ مَن يدُلُّهم على خطئهم.

كم رأينا مِن أناسٍ ذَكَّرهم أصدقاؤهم بخطأٍ فيهم، وعيبٍ في سلوكهم وأخلاقهم، فلا يفرحون بذلك، بل يذمُّونه ويحتقرونه.

يقول أحدُ الحكماءِ العقلاء: «ليس ينبغي أن تَغضبَ على صديقك إذا نصح لك في جَلِيلِك ودَقِيقِك، بَلِ الْأَقْمَنُ[(٣)] بك، والْأَخْلَقُ[(٤)] لك أن تَتَقبَّل ما يقولُه، وتُبْدِي البشاشةَ في وجْهِه، وتَشْكُرَه عليه حتى يَزِيدَك في

(١) مدارج السالكين ١/ ٥١٦.
(٢) مدارج السالكين ٢/ ٣٢١.
(٣) أي: الأجدر.
(٤) أي: الأفضل والأحرى.

كلِّ حالٍ ما يُجَمِّلُك، ويَكبِتَ عدوَّك، والصديقُ اليومَ قليل، والنصح أقلّ، فمتى ظَفِرْتَ بهذا الْمَوصوفِ فاعلم بأنَّ جَدَّكَ[١] قد سَعُدَ، ونَجْمَكَ[٢] قد صَعَد، وعدوَّك قد بَعُد»[٣].

لِنعوِّدْ أنفسنا أنْ نعترف بأخطائنا، ولْنفرح بمن يُصارحنا ويدلُّنا عليها، ولْنحذرْ إنْ لم نفعلْ ذلك أنْ ينطبق علينا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وقد يمنع أحدُنا من قبول النقد والرد ما هو فيه من المنصب والعلم والمكانة، وهذه مصيبةٌ عظيمةٌ، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أفضل الأشياء التزيد من العلم، فإنه من اقتصر على ما يعلمه، فظنه كافيًا؛ استبد برأيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعًا له من الاستفادة، والمذاكرة تبين له خطأه، وربما كان معظمًا في النفوس، فلم يتجاسر على الرد عليه، ولو أنه أظهر الاستفادة، لأهديت إليه مساوئه، فعاد عنها». ا.هـ[٤].

والصديق الذي يُصارح صديقه في وجهه، خيرٌ من الذي يُجامله ثم يغتابه في غيبته، وحال هؤلاء كما قال الشاعر:

ويَلْقَوْنَنِي بالبِشْرِ ما دمتُ فيهمُ ... فإنْ غبتُ عنهمْ قطَّعوا الجلدَ بالسبِّ

(١) أي: حظك.
(٢) أي: مكانتك ومنزلتك.
(٣) الصداقةُ والصديق، ص٢٠٢.
(٤) صيد الخاطر، ص١٤٩.

١٧

الثناءُ الصادقُ عليه، ودعمُه وتشجيعُه وشُكرُه

ما أجمل أنْ يُكثِرَ الصديقُ من شكر صديقه على محاسن أعماله، ويُثني ويُشجعه على جميلِ فعاله، دون مُبالغةٍ أو تزلُّفٌ أو نِفَاق.

والصِّدْقُ أفضلُ ما لَفَظْتَ بِه ... إنَّ النِّفَاق سَجِيَّةٌ تُرْدِيْ

والثناءُ الصادقُ والتشجيعُ خُلُقٌ لا يتخلَّق به إلا أصحابُ النفوس الشريفة، كيف وقد سمَّى الله تعالى نفسه شاكرًا! فقال: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨]، قال العلامة محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالنُّكْتَةُ فِي اخْتِيَارِ هَذَا التَّعْبِيرِ تَعْلِيمُنَا الْأَدَبَ، فَقَدْ عَلَّمَنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَذَا أَدَبًا مِنْ أَكْمَلِ الْآدَابِ، بِمَا سَمَّى إِحْسَانَهُ وَإِنْعَامَهُ عَلَى الْعَامِلِينَ شُكْرًا لَهُمْ، مَعَ أَنَّ عَمَلَهُمْ لَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ ضُرًّا، فَيَكُونُ إِنْعَامًا عَلَيْهِ وَيَدًا عِنْدَهُ، وَإِنَّمَا مَنْفَعَتُهُ لَهُمْ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، إِذْ هَدَاهُمْ إِلَيْهِ وَأَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ، فَهَلْ يَلِيقُ بِمَنْ يَفْهَمُ هَذَا الْخِطَابَ الْأَعْلَى، أَنْ يَرَى نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، وَهُوَ لَا يَشْكُرُهُ وَلَا يَسْتَعْمِلُ نِعَمَهُ فِيمَا سِيقَتْ لِأَجْلِهِ؟ ثُمَّ هَلْ يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَرَى بَعْضَ النَّاسِ يُسْدِي إِلَيْهِ مَعْرُوفًا، ثُمَّ لَا يَشْكُرُهُ وَلَا يُكَافِئُهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ فَوْقَ صَاحِبِ الْمَعْرُوفِ رُتْبَةً وَأَعْلَى مِنْهُ طَبَقَةً؟ فَكَيْفَ وَقَدْ سَمَّى اللهُ تَعَالَى إِنْعَامَهُ عَلَى مَنْ يُحْسِنُونَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَإِلَى النَّاسِ شُكْرًا، وَاللهُ الْخَالِقُ وَهُمُ الْمَخْلُوقُونَ، وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَهُمُ الْفُقَرَاءُ الْمُعْوِزُونَ؟.

فتَرْكُنَا شُكْرَ النَّاسِ وَتَقْدِيرَ أَعْمَالِهِمْ قَدْرَهَا، سَوَاءٌ كَانَ عَمَلُهُمُ النَّافِعُ مُوَجَّهًا إِلَيْنَا أَوْ إِلَى غَيْرِنَا مِنَ الْخَلْقِ، فَهُوَ جِنَايَةٌ مِنَّا عَلَى النَّاسِ وَعَلَى أَنْفُسِنَا؛ لِأَنَّ صَانِعَ الْمَعْرُوفِ إِذَا لَمْ يَلْقَ إِلَّا الْكُفْرَانَ، فَإِنَّ النَّاسَ يَتْرُكُونَ عَمَلَ الْمَعْرُوفِ فِي الْغَالِبِ، فَنُحْرَمُ مِنْهُ، وَنَقَعُ مَعَ الْأَكْثَرِينَ فِي ضِدِّهِ فَنَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ..

ثُمَّ إِنَّ كُفْرَانَ النِّعَمِ، لَا بُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ فِي نَفْسِ مَنْ عَسَاهُ يُوجَدُ مِنْهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَثَرُهُ تَرْكَ السَّعْيِ وَالْعَمَلِ، كَانَ الْفُتُورَ فِيهِ..

كَذَلِكَ الشُّكْرُ يُؤَثِّرُ فِي إِنْهَاضِ هِمَّةِ أَعْلِيَاءِ الْهِمَّةِ، مِنَ الْمُخْلِصِينَ فِي أَعْمَالِهِمْ، الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عَلَيْهَا جَزَاءً وَلَا شُكُورًا؛ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ عَمَلَهُمُ الْخَيْرَ نَافِعًا فَيَزِيدُونَ مِنْهُ، كَمَا أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْهُ ضَائِعًا يَكُفُّونَ عَنْهُ. ا. هـ رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)].

وها هو القائد الأعظم، والرسول الأكرم ﷺ، الذي كسب بِقِيَمِه صفوةَ الرجال، وصنع بأخلاقه وتشجيعه الأبطال، يُثني ويشكر الناس على محاسن أعمالهم، وفضائل خِصَالِهِم، فيشكر رجلًا فيقول: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ**»[(٢)].

ويشكر ويُثني على آخر فيقول: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**»[(٣)].

وأما شكره لأبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلا يُحصر، وثناؤه على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أشهرُ مِنْ أنْ يُذكر.

---

(١) تفسير المنار ٢/ ٤١ ـ ٤٢.
(٢) رواه مسلم (١٧).
(٣) البخاري (١١٢٢)، ومسلم (٢٤٧٩).

فشكرُ الأصدقاء وغيرهم والثناء عليهم ـ بِمَا فيهم ـ صفةٌ لا يتحلى بها إلا شرفاء الناس، أصحابُ القلوب الصافية السليمة، وهي من أعظم ما تُدخل السرور على الصديق.

ثناءٌ من خليلٍ خيرُ كسبٍ ... لصاحب نِعمةٍ وأخي ثراء[١]

وإن الشكر والثناء لا يستغني عنه الصديقُ مهما كبُر سنُّه، وعظُم قدره، وقويتْ صلتُه، فالكبير إذا مدحه طفلٌ صغيرٌ بصفةٍ تميَّز بها عن غيره، فرح بها، فكيف لو جاء هذا المدح من كبيرٍ خبير؟.

ولو كانَ يستغني عن الشّكرِ ماجدٌ ... لرفعة شأنٍ أوْ علوِّ مكانِ
لما أمرَ اللَّهُ العبادَ بشكرهِ ... فقالَ اشكروني أيُّها الثّقلانِ

(١) كنوز المروءة في الصداقة والأخوة ٢/ ٣٤٩.

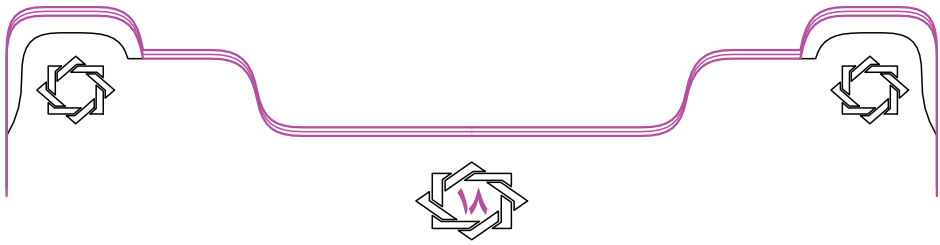

١٨

اسْتعمال الحكمة والرفق عند سوء التفاهم

ليس من العيب ولا من الغريب أنْ يحدث خطأٌ من أحد الأصدقاء تجاه صديقه، فالخطأ من طبيعة البشر، ولكن العيب والرزيَّةَ أنْ يصنعَ الصديق من هذا الخطأ مُشكلةً، وبابًا لتصفية الحسابات، والدخولِ في النيات.

ولا يخفى على أحدٍ منَّا مدى تأثيرِ الخلافاتِ على العلاقات بين الناس، بل بين القبائلِ وحتى على مستوى الدولِ فيما بينها، لأسبابٍ قد تصل لدرجة القطيعة والعداوة، بسبب تمسك كلِّ طرفٍ برأيه وقناعَتِه، بأنه هو المظلوم والْمُعتَدى عليه، وأنه لم يصدر منه أيُّ خطأ في حق غيره، مما يجعل الصلح وحل الخلاف أمرًا صعبًا مُعقَّدًا.

وتختلف أسباب الخلافات لكل مشكلة، فهناك خلافاتٌ أسبابها قويةٌ لا تُحتمل، وهناك خلافاتٌ يسيرةٌ بل تافهة، نجعل منها قضايا كبيرة، تقودنا إلى طريق المشاحنات والسباب، حتى تصلَ بنا في النهايةِ إلى هاوية القطيعة، والعجبُ أنَّ غالب مشاكلنا من هذا النوع.

وينبغي لكل من حصل بينه وبين صديقه أو قريبه مُشكلةٌ أو سوء تفاهم أو مكروهٌ أنْ يُبادر إلى زيارته، لفهم وجهة نظره، وسبب فعله، ومُحاولةِ تحجيم المشكلة لا تضخيمِها.

فأفضل طريقٍ لقطع دابر الشر والفتنة: المقابلةُ والمواجهة بين

الطرفين، لا المراسلةُ ولا الْمُكالمة، فالْمُكالمةُ قد لا تُعالجُ المشكلةَ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَجْتَرِأُ في الكلامِ حال عدمِ المواجهة.

وأما المراسلات بالجوال ونحوِه، فهذه ضررها قد يكون أكثرَ من نفعها، وكم تأزَّمتِ الأمور برسالةٍ قُصد بها الإصلاحُ أو العتاب، وخاصةً إذا أُرسلتْ في مجموعةِ الأصدقاء أو الأقارب، التي ما أُنشئتْ إلا لتقوية أواصر المحبة، وزيادة الألفة والترابط، فيُرسل أحد أعضاء هذه المجموعةِ، نقدًا أو عتابًا لأحد الأعضاء، فينقسم الأعضاء بين مُؤيِّدٍ ومُعارض، فينتهي المطافُ بهم، إلى الخروج من هذه المجموعة، والنفوسُ مُكدَّرة، والقلوبُ نَافِرة[1].

وهذا من قلَّةِ الحكمة والعقل، ومن المعلوم أنَّ النصيحة في العلانية فضيحة، فكيف بالعتاب واللوم والسباب؟.

ولو أنه قابلَ صاحبَه وتفاهم معه لكانتِ العاقبةُ محمودة.

(١) نَافِرة؛ أي: مُتفَرّقة، مفردها: نَفْرُ، وبعضهم يقول: مُتنافِرة، والأصح ما ذُكر، والله أعلم.
قال في القاموس المحيط، مادة: (النَّفْرُ): نَفَرَتِ الدَّابَّةُ تَنْفِرُ وتَنْفُرُ نُفورًا ونِفارًا فهي نافِرٌ ونَفورٌ: جَزِعَتْ وتَباعَدَتْ.

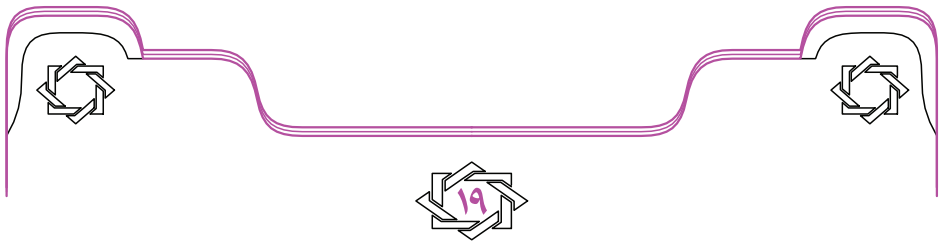

١٩

الحلم، وكتمان غيظه وغضبه

ينبغي للصديق أنْ يكتم غيظه وغضبه على صديقه، وأنْ يكون حليمًا رفيقًا مع أخطاء صديقه، وأنْ يكتم غضبه قدر الإمكان، وأنْ لا يستعجل في الردّ على الخطأ والزلل، ومن ركب العجلة لم يأمن الكبوة، فإنْ كان سريعَ الغضب فلا بدّ أنْ يُعالج نفسه حتى لا يخسر أصدقاءه.

وليكن لسان حاله:

وأُغْضي على أشياءَ لو شئتُ قلتُها ولو قلتُها لم أُبْقِ للصُّلْحِ مَوْضِعًا

ولْيُعلم أنّه لا بد لكل داءٍ من دواء، ودواءُ الغضب عند هيجانه في الأمور التالية:

الأول: أن يتفكر في ما وردَ في فضل كظم الغيظ، والعفو والحلم والاحتمال، فيرغب في ثوابه، وينطفئ عنه غيظُه حينئذٍ بإذن الله.

الثاني: أن يخوف نفسه بعقاب الله تعالى، وهو أن يقول: قدرة الله عليَّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبي عليه، لم آمن أن يُمضي الله غضبه عليَّ يوم القيامة، وأنا يومها أحوجُ ما أكون إلى طلب العفو.

الثالث: أن يُحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، وهو لا يخلو عن المصائب والأضرار، التي أقلها تشويش الخاطر، والتعب النفسي، وقد يُصاب بأمراضٍ خطيرة بسبب ذلك.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب، بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب.

فإذا أردت أنْ تعرف بشاعةَ الغضب وقُبحه: فانظر إلى ما يصدر منك حال غضبك، تأمل فيما يصدر منك من أقوالٍ قبيحة، وشتائم بذيئة، وتهديداتٍ سخيفة، وعباراتٍ بشعة.

وتأمل في قبح منظرك ووجهك، ولو رأيت منظرك حال غضبك لاسْتقبحت ذلك، ورأيت وجهًا قد انتفخ واحمرّ، وعينانٍ قد احمرَّتا وتوسَّعت حدقتُهما، ورأيت يديك تجولُ في كلِّ اتجاه، حينها تعلم نعمةَ العقل والحلم.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام، ويمنعه من كظم الغيظ، وهو الشيطان، الذي أخذ على نفسه إضلال بني آدم.

السادس: أن يعلم أنه إذا عفى وصفح فسوف ينقلب خصمه وعدوه إلى صديق حميم، وأما إذا أمضى غضبه فسوف تزداد العداوة.

وليس معنى كظمِ الغيظ أنْ يسكت الإنسان عن أخطاء أصدقائه، وتطاولِهم وقلَّة أدبهم، والسكوتُ عن التشفي في الحال قد يُصيبُ الإنسان بالضرر الخطير، حيث يحتقن الغضب في باطنه فيصير حقدًا.

ولكن معنى كظمِ الغيظ: أنْ يتحكم في نفسه، ولا يصدرَ منه ما لا ينبغي، فلا يردّ بكلامٍ فظٍّ غليظ، بل يُجيب خصمَه ويردُّ عليه بحكمةٍ ورويَّةٍ، دون عجلةٍ وكلامٍ بذيءٍ.

ولم أرَ في الأعداءِ حين اخْتَبَرْتُهُم ... عدُوًّا لِعَقْلِ الْمَرْءِ أَعْدَى مِن الْغَضَبِ

ومَّما ينبغي أنْ يُعلم، أن الغضب الطارئ والعارض لا يسلم منه أحدٌ من البشر، فقد يمرُّ بنا موقفٌ ما يُثير غضبنا، فننفعلُ ونحتدّ، لكن أنْ يكون الغضبُ سمةً بارزةً علينا، نغضب في أتفه الأسباب، ولا

نتحكم بانفعالاتنا، فهذا الذي يجب على كلِّ عاقلٍ أن يحذر منه، وهو ما جاءتِ الشريعةُ بذمه.

وينبغي للَّبيب أنْ يلتزم الصمت حال غضب صاحبه وعَتَبِه عليه، أو يردّ بكلامٍ لطيفٍ، فإنه إذا ردَّ عليه بجفاءٍ، أو جادله فإنه سيزيدُ من غضبه، ويُغلق أو يصعب باب الصلح.

إذا ما الصَّحْبُ جارَ فَقُل صوابًا ... فإنَّ الجورَ يُدْمَغ بالصواب

وينبغي أنْ يُعامله بما قال الشاعر الحكيم[1]:

ليس عندي وإنْ تغضَّبْتَ إلا ... طاعةٌ حرةٌ وقلبٌ سليم

وانتظارُ الرضا فإنَّ رضى السا ... دات عزٌّ وعَتْبهم تقويم

(١) الصداقةُ والصديق، ص٢٤٤.

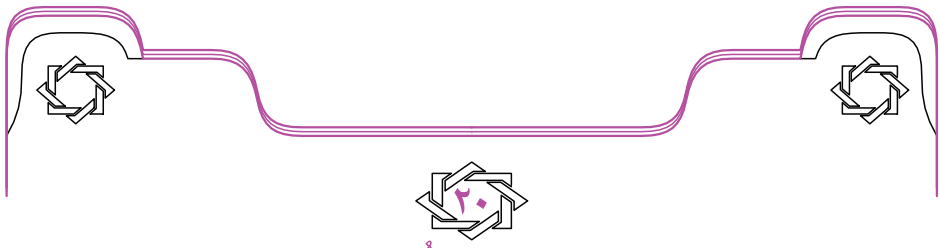

٢٠

عدمُ عتابه بقسوة، والإقلالُ منه إنْ كان بلطف

العتاب في اللغة: هو اللوم والتقريع، والبوح للصديق بما وجده عليه.

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: يُقَالُ: عَتَبَ عَلَيْهِ يَعْتُبُ ويَعْتِبُ مِنَ المَوْجِدَة والغَضَب.

والعِتَاب: مُخاطَبَة الْإدلَال ومُذَاكرة الْمَوْجِدَة.ا.هـ[1].

وعتاب الصديق على نوعين:

النوع الأول: عتابٌ لا يستغني عنه أحدٌ، ولا تدوم صداقةٌ ومودَّةٌ بدونه، وهو مخاطبة الإدلال، والعتاب بألطف أسلوب، وإخباره بأنه لا يرغب بالشيء الفلاني، ويُصارحه بلطفٍ عن شيءٍ رآه منه وأزعجه مثلًا.

وهذا لا غِنى لأحدٍ عنه، كما قال الشاعر:

أُعاتب ذا المودَّة من صديق ... إذا ما رابني منه اجتنابُ
إذا ذهب العِتاب فليس وُدٌّ ... ويبقى الوُدُّ ما بقى العتابُ

وهذا العتاب يُفيد كثيرًا إذا كان بأسلوبٍ رقيقٍ جميل، ولم يكن كثيرًا مُمِلًا.

زيادةُ العَتْبِ نقضٌ لِلْوِدَادِ فلا ... تُكْثِرْ عتابَ الذي ترجو مودَّته

(١) النهاية، مادة: (عتب) ٣/ ١٧٥.

أما إذا كان يسيرًا فهو ينفع ويُفيد، بل «ربما أصلح وردَّ الفائت، وشعَّبَ الصدع، ولمَّ الشعث، والإكثار منه ربما عرَّض بالحقد، وأحدث نوعًا من النُّبُوّ[١]، وقد قيل: وما صافيت من لا تعاتبُه، وربما كان العود إلى الصفاء بعد هذا الكدر فوق ما عَهِدَاه في الأول»[٢].

وما أجمل تقديم عفوك له قبل عَتَبِه، فإنّ هذا من أعظم أخلاق الكرام، قال تعالى لنبيّه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، فقل أنت لمن تعتب عليه: عفا الله عنك وسامحك لم فعلت كذا؟ بأُسلوبٍ لطيف.

النوع الثاني: هو اللوم والتقريع بأسلوبٍ فظٍّ غليظ، وهذا هو الذي يجب على الصديق اجتنابه بتاتًا، والنوع الأول يُجتنب الإكثار منه، فالإكثار من كل شيءٍ مُمِلّ.

ونهاية هذا العتاب غالبًا الهجر والقطيعة، وصدق القائل[٣]:

أردتُّ عتابَكم فصفحتُ إني ... رأيتُ الهجرَ مَبْدَأُه العِتَابُ

فبعض الأصدقاء يَفْتَحُ على صديقه باب الْمَعتبة، ويُحْوِجُه إلى أنْ يُغلقه عنه بالمعذرةِ، وتكلُّفِ الْحُجَّة، ويُكَلِّفُه مِن ذلك ما لَمْ يكن له خُلقًا ولا عادة.

وبعض الأصدقاء إذا انقطع صديقُه عنه عاتبه لانقطاعه، وإذا طلب منه حاجةً أو قرضًا، فلم يستطع تحقيق ذلك حمل في نفسه عليه، ورُبَّمَا أدَّاه ذلك إلى فتور علاقته معه.

وكثيرًا ما خسر الصديق صديقه بكثرة عتابه، وشدة لومه.

---

(١) النُّبُوّ: الإعراض والنفر من الشيء، تقول: نبا عني؛ أي: جفاني وأعرض عني.
(٢) الصداقة والصديق، ص١٤٤.
(٣) الصداقة والصديق، ص١٧٨.

يقول ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: العتاب للصديق كالسَّبْك للسبيكة، فإما تصفو وإما تطير.ا.هـ[١].

فيا أيها المعاتب صديقه، والمحاسب له على زلَّته، لو تدَّبرت لعلمتَ أنَّكَ أولى بالعتاب منه، حيث لم تصبر وتتمالك نفسك، ولم تلتمس له عذرًا، ولم تُعاتبه بأسلوبٍ يليق بمقامه.

أَقْلِلْ عتابَك فالزمانُ قليلُ ... والدهرُ يَعْدِلُ مرَّةً ويميل
ولعل أيامَ الحياةِ قصيرةٌ ... فعَلَامَ يكثرُ عَتْبُنَا ويطول؟

ولقد أحسن الآخر في قوله[٢]:

إذا كنتَ في كلِّ الأمور معاتبًا ... صديقك لم تلق الذي لا تُعاتبه
فعش واحدًا أو صِلْ أخاك فإنَّه ... مقارفُ ذنبٍ مرَّةً وَمُجَانِبُه

ومِن أبغضِ أنواع العتاب: ما كان عن طُولِ الغياب!، وهذا لا ينبغي للصديق ولا للقريب القيام به، فلَومُه على طول فراق صديقهِ تزكيةٌ لنفسه بأنَّه واصلٌ قائمٌ أتم القيام بحق صديقه، ولكن الصديق هو الْمُقصر المفرط!.

هذا هو المفهوم من العتاب، وهو الذي يخطر ببال الْمُعاتَب مُباشرةً، انظر كيف صار يعذُر نفسه ويَعذِلُ صاحبه، ويُعْفي نفسه ويَطلبُه، ولسان حاله: وأين دورك أنت في وصالي وزيارتي، أو على الأقل: الاتصال بي؟.

---

(١) رسائل ابن حزم، ص٣٥٩.
وسَبَك السبيكة: أذَابَها وَصَنَعَ مِنْها أَشْكالًا لِلْحَلْيِ، تقول: سَبَكْتُهُ التَّجارِبُ: حَنَّكَتْهُ، عَلَّمَتْهُ، هَذَّبَتْهُ.
والسبيكة: قطعةٌ مستطيلةٌ من المعدن.

(٢) الصداقة والصديق، ص١٦٥.

وربَّما كان الحقُّ عليك في تَعَهُّدِه أَوْجَبَ منه عليك لفراغك وشغلِ صاحبك.

بل إذا طال غيابُك عن صاحبِك فأخبره بمشاعرك تجاهه، وعن تحسُّرك لعدم وجود الفرصة المناسبة للقائه، ولْيكنْ لسانُ حالك ومقالك كما قال الشاعر[١]:

لَئِنْ عاقَ جِسْمِي عن لقائِك مانعٌ ... فما عاق قلبيْ عن لقائِك عائقُ
فإنْ ظهَرَتْ منِّي دلائلُ جَفْوَةٍ ... فمَا أنَا إلا مُخْلِصُ الْوُدِّ صَادِقُ

أو قل له كما قال الآخر[٢]:

لَئِنْ غِبْتَ عن عيني بالبُعد والنَّوى[٣] ... لَمَا غبتَ عن فكريْ وعنْ ناظرِ الْقلب
أراكَ على بُعْدِ الْمَسافة بيننا ... كما تُبْصِرُ العينانِ منِّي على القُرْب

(١) مُحاضرات الأدباء ١/ ٣٤٣.
(٢) الصداقةُ والصديق، ص٢٦٤.
(٣) النوى: هي الناحية والجهةُ يُذهب إليها لحاجةٍ أو ضرورة.

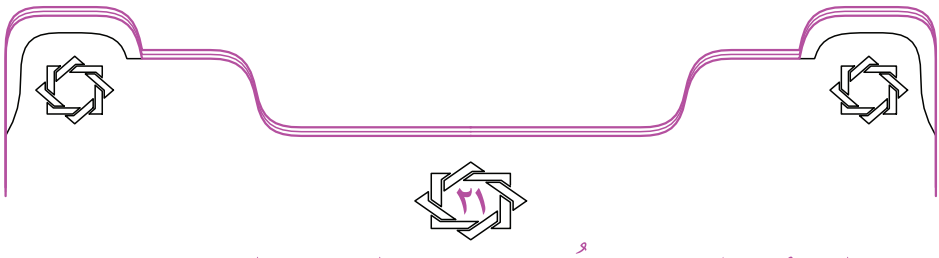

٢١

الصبرُ عليه، وسترُ عيوبه، والعفو والصفح عنه

لا بدّ لك ـ أيها الصديق المخلص ـ أنْ تسترَ عيب صديقك، وتغفرَ ذنبه، وتتجاوزَ عن أخطائه، ولا تقفَ عند عثراته، فإنْ لم تفعلْ فلن يدوم لك صديق.

وكنتُ إذا الصديق أراد غَيظي ... وأشرقني على حنقٍ بريقي
عفوتُ ذنوبَه وصفحتُ عنه ... مخافةَ أنْ أعيشَ بلا صديق

واحْذرْ أنْ تَسير على منهج الجاهليَّة، الذي تمثَّله شاعرهم بقولِه[1]:

أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَينا ... فَنَجْهَلَ فوق جَهْل الجاهِلِينا

فهو لم يقتصرْ على الردّ بالمثل، بل زاد عليه، وبعضُ الأصدقاء ـ هداهم الله ـ ربما فعلوا مثل ذلك، فكم مِن صديقٍ كان ردُّه على خطأ وزللِ صديقه قاسيًا مُجْحِفًا، جائرًا ظالمًا، يردّ الصاع صاعين، والخطأ خطئين، بل رُبَّما هجره! وهذا أعظم وأشنعُ من ذنب صاحبه ـ ما لم يكن إثمًا ـ وكلُّ هذا من الظلم ونكران المعروف، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

وما أحسن قول القائل:

ومَنْ لَمْ يَطِبْ نَفْسًا وَيَسْتَبْقِ صَاحِبًا ... ويَغْفِرْ لِأَهْلِ الوُدِّ يَصْرِمْ ويُصْرَمِ

(١) هو عمرو بن كلثوم التغلبي، كما في معلقته.

ولن تجد صفةً تعيبها في صديقك إلا وجدتَ صفةً أُخرى تستحسنها كما قال الشاعر:

إذا عبتُ منه خُلَّةً فهجرتُه ... دعتني إليه خُلَّةً لا أعيبُها

بعضُ الأصدقاء يكون بخيلًا، لكنَّ عنده من الأخلاق والصفات الأخرى ما تُرقِّع هذا الخلق، وتسدُّ ثَلْمَ هذا الخرق، كأن يكون خدومًا سمحًا مُؤْنسًا، فاصبر ودارِ بُخله لتستمتع بِمَحاسنه الأخرى.

بعضُهم يكون عنيدًا شديد التمسك برأيه، لكنه مع ذلك يكون كريمًا باذلًا، سديدَ الرأي، ذا خبرةٍ وتجارب، فاصبر ودارِ عناده، وامدح رأيه ووافقه ـ قدر الإمكان ـ لتستمتع بِمَحاسنه الأخرى.

فالقاعدة إذن: اصبر ودارِ عيبه لتستمتع بِمَحاسنه، وتَسْتَدِيْمَ صُحبته.

إذا أنتَ لم تغفرْ ذنوبًا كثيرةً ... تُرِيبُكَ لم يسلمْ لكَ الدَّهرَ صاحبُ
ومنْ لا يُغمِّضْ عينَهُ عن صديقهِ ... وعن بعضِ ما فيهِ يمُتْ وهْوَ عاتبُ

والصديق العاقل لا يعمل ما يُثير الصفة السيئة في صديقه، ويتحاشا ما يُهيجها أو يُحركها.

فإذا علمتَ أنَّ صديقك لا يُحب نقْد فلانٍ أو جماعةٍ، أو يكره التعليق عليه، أو يُبغض كلماتٍ مُعيَّنةً، أو موضوعًا ما: فمن السخافةِ وقلَّة الوفاءِ والعقل أنْ تَذْكرَ ذلك عنده.

قال بعض السلف الصالح: مَن أحبَّ الناس صنع ما يُحبه الناس ـ ما لم يكن إثمًا ـ[1].

ولا بدَّ للصداقةِ أنْ يشوبَها نوع كَدَر، أو يحصُلَ من أحدهم غضبٌ أو ضرر، وهذه هي الطبيعةُ البشرية، التي يعتريها النقصُ والنسيانُ وتغيُّرُ

(١) الصداقة والصديق، ص٢٩٤.

المزاج، فإذا كان كذلك فلا بدّ أنْ يَسودَ التسامح بين الأصدقاء، والتغاضي عن الزلّات والأخطاء.

أتطلبُ صاحبًا لا عيب فيه وأيُّ الناسِ ليس له عُيوبُ

قال أبو حاتم رحمه الله: وما الفضل إلا لمن يُحْسِن إلى من أساء إليه، فأما مُجَازاة الإحسان إحسانًا فهو المساواة في الأخلاق، فلرُبَّما استعملَتْها البهائمُ، ولو لم يكن في الصفحِ وتركِ الإساءةِ خصلةٌ تُحْمَدُ إلا راحةُ النفس لكان الواجب على العاقل ألا يُكَدِّرَ وقته بالدخول في أخلاق البهائم بالمجازاة على الإساءة إساءة، ومن جازى بالإساءةِ إساءةً فهو المسيءُ وإن لم يكن بادئًا. ا. هـ[١].

فلا بد للصديق أن يصبر على زلات صديقه، وكبوات خليله، حتى يهنأَ بلا كدر، ويسلمَ من الضجر.

عاشر أخاك على ما كان مِن خلقٍ واحفظْ مودَّته بالغيب ما وَصَلا
فأطولُ الناسِ غمًا مَن يُريد أخًا ذا خُلَّةٍ لا يَرى في وُدِّه خَلَلًا

وما أجمل ما قاله الفضل بن يحيى رحمه الله تعالى: الصبر على أخٍ تعتب عليه خيرٌ من آخرَ تستأنف مودته[٢].

وقال الأحنف رحمه الله تعالى: مِنْ حقِّ الصديق أن يُحتَمَلَ له ظلم الغضب، وظلم الدَّالَّة[٣]، وظلم الهفوة[٤].

هَبْنِي أسأتُ كما زعمتَ فأين عاقبةُ الأخوه
وإذا أسأتَ كما أسأتُ فأين فضلك والمروَّةَ

(١) روضة العقلاء، ص٩١.
(٢) الصداقة والصديق، ص٤٠.
(٣) أي: الدلال، وهو ما نسميه: الْميانة، وهي أنْ تكون بينهما مودّةٌ وانبساط، ولا يجد أحدهما حرجٌ أو تكلّف في تعامله مع صديقه.
(٤) الصداقة والصديق، ص٦٩.

وإذا لم يصبر الصديقُ على بعض ما لا يُعجبه من صديقه، فربما ابتُلي بصديقٍ نَكِدٍ أو عسِرٍ يعرف حينها قَدْرَ الأول.

سَتَذْكُرني إذا جربتَ غيري ... وتعلمُ أنَّني لك كنتُ كنزًا
ستنكتُ نادمًا في الأرض بعدي ... وتعلمُ أنَّ رأيكَ كان عَجْزًا

والعفو والصفح الجميل هو الذي لا توبيخ ولا تأنيب معه.

قال بعض البلغاء: ليس تكمل محاسنُ الصفح إلا بالإضراب[١] عن مذَلَّةِ التوبيخ، فإنَّ التأنيبَ أوجعُ وقعًا في وجه الكريم من وقعِ الضَّرْبِ في بدن اللئيم[٢].

كنْ كالنَّخيل عن الأحقادِ مرتفعًا ... يُؤْذَى برجمٍ فيُعْطِي أطْيبَ الثَّمَرِ

ولا ينبغي للصديق أنْ يُذَكِّرَ صديقَه بهفواته السابقة، بل ينبغي أنْ يُخفيها ويطويَها.

قال سهل بن هارون: العفو الذي يقوم مقام العتق ما سَلِمَ مِن تَعداد السَّقطات، وخَلُصَ مِن تِذْكار الزلات[٣].

وخاصةً إذا ندم على ما كان منه، ولْيكن لسان حالك:

فإنْ فاء لم أَعْدُدْ عليه ذنوبَه ... وهل بعد فَيْئَاتِ الرجالِ ذُنُوبُ؟

ولا ينبغي للصديق كذلك أنْ يُذَكِّرَ صديقَه بفضائله السابقة عليه، فيقول: هل نسيتَ ما فعلتُ معك يوم كذا وكذا!، فهذا منٌّ غيرُ مقبولٍ أبدًا، فإنْ فعلَ ذلك فهو كما قال الشاعر:

---

(١) أي: الإعراضِ.
(٢) الصداقةُ والصديق، ص٢٠٩.
(٣) الصداقةُ والصديق، ص٢٠٩.

أَفْسَدْتَ بِالْمَنِّ مَا أَسْدَيْتَ مِنْ حَسَنٍ لَيْسَ الْكرِيمُ إِذَا أَعْطَى بِمَنَّانِ

خيرُ الأصحاب ـ كما قال الحكماءُ ـ: من ستر ذنبك فلم يُقرِّعْك، ومعروفُه عندك فلم يَمْنُنْ عليك.

قال أبو حيان التوحيدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «نظرتُ في حال الإنسان، وصوَّبتُ طرفي فيه وصعَّدت، وحسِبتُ ما له وما عليه وحصلتُ، وأجملتُ ما به وفيه وفصّلتُ، فلم أجد له شيئًا خيرًا من الصبر، فيه يُقاوَم المكروه، وتُستدفَعُ البليَّة، وبه يُؤدَّى شكر النعمة، وما أحلى ما أشار إليه الشاعر حين قال:

إنَّ الزمان على اختلاف مروره ما زال يَخْلِطُ حُزْنَه بسروره
لم يَصْفُ عيشًا مُنْذُ كان لِمَعْشَرٍ إلا وعَاد يَجِدُّ في تَكْدِيرِه
فالعاقل النِّحْريرُ يُلْزِمُ نفسَه صبرًا عليه في جميع أموره
وأحقُّ مَا صَبَرَ امرؤٌ من أجله ما لا سبيل له إلى تَغْيِيْرِه»

لن تجدَ مُتْعةَ الصُحْبةَ حتى تُعامِلَ أصحابك بالمسامحة، قال بعضُهم: مَن عاشر الناس بالْمُسامحة دام اسْتِمْتَاعُه بهم.

وكنتُ إذا صحبتُ رجال قومٍ صحبتهُمُ وشيمتيَ الوفاءُ
فأُحسنُ حين يُحسنُ مُحْسِنُوهم وأجتنبُ الإساءةَ إن أساؤوا
وأُبصرُ ما يَعِيْبُهُمُ بعينٍ عليها من عُيُونِهِمُ غِطَاءُ

(١) الصداقة والصديق، ص٨٧.

الموقف السليم مع الصديق القاطع والْمُجافي

ينبغي للصديق إذا رأى من صديقه الوفيّ نوعَ جفوة، أو بدايةَ قطيعة، ألا يُلحّ عليه ويُكثر من عتابه، فهذه حالةٌ من الفتور تعتري الكثير من الأصحاب والخلان، وَلْيَكُنْ لسان حاله ومقاله ما قاله مَن كان على مثل حاله[١]:

رأيتك لا تختار إلا تباعدي ... فباعدتُ نفسي لاتِّباع هَواكا
فبُعْدُك يُؤذيني وقُرْبيْ لكمْ أذى ... فكيف احْتياليْ يا جُعِلْتُ فِداكا؟

واحذرْ أنْ تُسمعه كلماتٍ قاسيةً بسبب هُجرانه، أو تفعل ما يُغضبه ويُثير الحقد في صدره، فتنسدّ الطرق في إرجاعه.

يقول أحدُ الحكماء[٢]: لا تقطعْ أحدًا إلا بعد عجزِ الحيلة عن اسْتصلاحه، ولا تَتْبَعْه بعد القطيعة وقيعةً فينسدّ طريقه عن الرجوع إليك، فلعل التجارب تَردُّه إليك، وتُصْلحه لك.

وليس بصوابٍ ما قاله الشاعر:

إني إذا ما الخليلُ أحدث لي ... صرْمًا وملَّ الإخاءَ أو قطعا
لا أَحتسي ماءه على رَنَقٍ ... ولا يراني لِبَيْنِه جَزِعًا

والمعنى: إذا الصديقُ هجرني وملَّ إخائي أو قطعني فإني لا أَحتسي ماءه على رَنَقٍ، والرَنق هو الكَدَر يُصيب الماء الصافي، ولا يراني لِبَيْنِه؛ أي: لقطيعته جَزِعًا قلقًا لذلك!!

(١) الصداقة والصديق، ص٢٣٧.
(٢) الصداقة والصديق، ص٢٥٩.

وحينما سمع هذا أحدُ الحكماء والعقلاء قال: «هذا ظلم، لِمَ لا أحتسي ماءَه على كَدَر، ولِمَ لا أجزع لفراقه، ولِمَ لا أَسْتصلحه وأتلطَّف له إذا أحدث لي صِرْمًا؟ ولعلَّ صِرْمه عارض، ومَلَلَه عن غير عقيدة، وقطْعه غَلَط، كأنَّ الصديق مَكْسوبٌ بسهولة، وموجودٌ متى طلب؟، وهيهات!»[١].

(١) الصداقة والصديق، ص١٦٨، مع بعض التصرف.

نصيحة لمن هجر وقطع صديقه أو قريبه

اسْمع يا من هجرت وقطعت صديقك أو قريبك إلى موقف الصديق أبي بكرٍ رضي الله عنه حيث كان ينفق على مسطحٍ رضي الله عنه لقرابةٍ بينهما، فهو ابنُ خالته، وكان ممن تَكلَّمَ في الإفك، بل هو ممَّن اتهم عائشةَ ابنته صراحةً بما برَّأها الله منه رضي الله عنها، فحلف أبو بكر ألا ينفق عليه.

فانظر وتأمل كيف لم يَهْجره ولم يُقاطعْه، وإنما قطع النفقة فقط، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ﴾ [النور: ٢٢].

فقال أبو بكر رضي الله عنه: بلى والله، أُحِبُّ أن يَغفر الله لي، وَرَدَّ إلى مسطحٍ نفقته وقال: والله لا أنزعها أبدًا[(١)].

تأمّلْ يا من قطعتَ وهجرت أخاك أو صديقك، أو سببتَه أو تكلَّمت عليه بقسوةٍ وحدَّة، كيف نهى الله تعالى أنْ يقطع المعروف عمَّنْ اتَّهَمَ عرضه وشرفه.

وهل تُقارن ما تعرض له أبو بكر رضي الله عنه من ظُلمٍ من قريبه مِسطَح، بما تعرضَّتَ له أنت من ظلمٍ من قريبك ـ على فرضِ أنه ظلمك حقًّا ـ؟؟.

أفلا تُحبُّ أنْ يغفر الله لك؟ فاغفر لصديقك وسامحه إنْ كنت تريد

(١) البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٧١٩٦).

من الله تعالى أنْ يغفر لك ويُسامحك، في يومٍ قد تندم على عدمِ مُسامحتك وعفوك، حين ترى جزاء العافين بأمِّ عينك.

ولا يعني هذا ألا نُحاسب المخطئ، فقد حاسب النبي ﷺ بعضًا من الصحابة رضي الله عنهم على بعض الأخطاء والذنوب..

ولكن المحاسبة لا تعني إعلان المقاطعة، والغلظة والجفاء.

وتزادُ شناعة القطيعة إنْ كان بينهما رحمٌ وقرابة، والعاقل يتحاشى قطيعة قريبه خشيةَ غضب ربه، وسوءِ سُمعته.

ولا أدَعُ ابنَ العَمّ يَمْشِي عَلى شَفًا ... ولو بَلَغَتْنِي منْ أذاهُ الجَنادِعُ[1]
ولكن أُواسيهِ وَأنْسَى ذُنوبَهُ ... لِتُرجِعَهُ يَوْمًا إليّ الرّواجِع
وأُفْرِشُهُ مالي وأحفَظُ غيْبَهُ ... ليسمعَ أني لا أُجازيهِ سامعُ
وحسبُكُ من جهلٍ وسُوءِ صَنيعَةٍ ... مُعَاداةُ ذِي القُربى وإنْ قيلَ قاطعُ

ويا سبحان الله!! على ماذا هذا الكره والتقاطع؟ على دنيا فانيةٍ حقيرةٍ، أو زلةِ لسان لا يَسلم منها أحد! أمَالَكَ في رسولك وحبيبك أسوةٌ حسنة؟ أتعرف من هو عبد الله بن أبيّ بن سلول؟ ذلك المنافق الذي اتَّهم عرض رسول الله ﷺ!! اتهم زوجته عائشة بالفجور والزنا، حتى دخل الهمُّ والحزنُ كلَّ بيتٍ من بُيوت المدينة، وأصاب عائشةَ رضي الله عنها كربٌ شديدٌ، واغتمّ صاحب القلب الأبيض ﷺ غمًّا شديدًا، حتى برَّأ الله عائشة من فوق سبع سموات، وهو الذي قال مرةً: «**ليخرجن الأعز**» منها؛ يعني: نفسه، الأذل؛ يعني: رسول الله، وما زال أذاه في رسول الله وأصحابه وعرضه حتى داهمه الموت، فجاء ابنه عبد الله بن عبد الله فقال: يا رسول الله أعطني قميصك أكفِّنه فيه، وصلِّ عليه، واستغفر له،

(١) الجنادع: الدَّوَاهي والمصائب والبَلايا.

فأعطاه صاحب القلب الأبيض الطاهر قميصه وقال له: آذِنِّي أصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثَبَ إليه عمرُ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أتصلي على ابن أبّي وقد قال يوم كذا: كذا وكذا، يعدِّد عليه قوله. فتبسَّم رسولُ الله ﷺ وقال: «**أخِّر عني يا عمر**».

فقال عمر: أما قال الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]؟

فقال: إني خُيِّرت فاخترت لو أعلم أني إن زدتُّ على السبعين غُفِر له: لزدت عليها.

فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤].

الله أكبر! ما أعظم قلب رسول الله وما أطهر فؤاده، مع كلِّ ما فَعله واقترفه هذا المنافق، وهو ليس بمسلمٍ ذي سُمْعةٍ حسنةٍ ولا قريب، ولكنه محسوبٌ من عدادِ الْمُسلمين في الظاهر، إلا أنه عليه الصلاة والسلام ما هجره وما قطعه، بل صلى عليه وكفَّنه بقميصه واستغفر له.

وعندما دخل نبيُّ الله ﷺ مكةَ فاتحًا مُنْتصرًا وقفتْ أمامه جموعٌ من قريشٍ أذلةً صاغرين، وبعضهم قد كان آذى رسول الله أذىً شديدًا، فمنهم من قد سبَّه وشتمه، ومنهم من اتهمه بالسحر والشعوذة، ومنهم من ضربه وضرب أصحابه، فقال لهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: أخٌ كريم وابن أخٍ كريم، فقال قولته الشهيرة: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإذا كان هذا خيرَ خلق الله وأكرمَهم على الله لم يَنتقِمْ لنفسِه، مع أنَّ أذاه أذَى الله[1]، ويتعلّقُ به حقوق

(١) أي: أن من يُؤذي رسول الله فقد آذى الله تعالى، وفي بعض النسخ: لله، ولعل الْمُثبت هو الصواب.

الدِّين، ونفسُه أشرف الأنفُس وأزكاها وأبرُّها، وأبعدُها من كلّ خُلُقٍ مذمومٍ، وأحقُّها بكل خُلُقٍ جميلٍ، ومع هذا فلم يكن يَنتقِم لها، فكيف يَنتقِمُ أحدُنا لنفسِه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب؟، بل الرجل العارف لا تُساوِي نفسُه عنده أن ينتقم لها، ولا قدْرَ لها عنده يُوجِبُ عليه انتصارَه لها[1].ا.هـ.

وها هو يوسف عليه السلام، ألقاه إخوته في الجبّ بعد أن تآمروا على قتله، وفرقوا بينه وبين أبيه وأهله أربعين سنة ـ كما قيل ـ، ذاق خلالها مرارة العبودية والسجن والظلم، فلما رفع الله من شأنه وأصبح عزيز مصر والْتقى بإخوته وقالوا له: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف: ٩١] فبماذا ردَّ عليهم؟ قال لهم: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢] فلم يُذَكِّرْهم بالماضي ولا حتى عاتبهم، بل سامحهم ودعا لهم.

فبادرْ بطلب الصُّلحِ والعفو من صاحبك وقريبك، قِفْ أمامَه واطْلُب منه الْمُسامحة ونسيان الماضي، قبل أنْ تقفَ أمامَ الْحَكَم العدل سبحانه، فلا مجال للصلح حينها، ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، إنما هي الدِّقةُ في الحساب، وسيُحاسبك على أمورٍ عملتها أو قلتها لصاحبك لم يَخْطر ببالك أنْ تُحاسَبَ عليها، ويُوقفُك على أمورٍ كنتَ تظنُّ أنك المحقُّ فيها، فإذا بك تكون الظالمَ الْمُعتدي، فتتقطَّع حسرةً وندمًا على عدمِ صلحك معه في الدنيا.

فها هو السجل بيدك اليوم، فإن أردت ألا يُفتح يوم القيامة فبادر بطلب الصلح والعفو، واحذر أن تأخذك العزة بالإثم.

---

(١) جامع المسائل لابن تيمية ١/ ١٧١.

وقد عدَّ كثيرٌ من العلماء التقاطع من الكبائر.

ومن أعظم الوسائل في ذهاب الكراهية من القلب: الدعاءُ بظهر الغيب لمن تُبغض، فإنه على ما فيه من الأجر العظيم، إلا أنه لا يلبث الداعي لأخيه مع الأيام، حتى يخف ما يجده في قلبه تجاهه.

متى تُسْتَعْمَلُ الشدةُ مع زلَّات الأصدقاءِ وغيرهم؟

اعلم ـ أيها الصديق الْمُبارك ـ أنَّ الزلل والخطأ الواقع عليك من أصدقائك وغيرهم لا يخلو من إحدى ثلاث حالات:

الحالةُ الأُولى: أنْ يأتي من صديقٍ أو قريبٍ صالح وفيّ، حصلت منه زلةٌ أو كبوة لا يخلو منها أحدٌ من البشر.

فهذا الذي أجمع على مُسامحته العقلاء، واتفق على التجاوزِ عنه الحكماء، ولم يختلف في اسْتحبابِ عذره العلماء.

وما تقدم من النقولات والحكمِ والأشعار إنما تعني مَن هذه حاله بالمقام الأول.

والذي لا يتجاوز ويعفو عنه فلا يستحقّ أنْ يكون صديقًا، وليس له في الوفاء أيَّ نصيب.

وصدق القائل[1]:

إذا ما الصديق أسَا مَرَّةً ... وقد كان مِن قَبْلِهَا مُجْمِلًا
حفظتُ الْمُقَدَّمَ مِن فعله ... ولم يُفسدِ الآخرُ الْأَوَّلَا

الحالةُ الثانيةُ: أنْ يأتي من صديقٍ أو قريبٍ صالح وفيّ، تكررتْ منه الزلةُ، ولم تكن كثيرةً أو شنيعةً، ففضائلُه تطْغَى على ذنوبه، ومحاسِنُه تعلو على مساويه، فهذا اختلف الحكماء والعقلاء فيه على قولين لا ثالث لهما:

(١) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/ ٣٣٣.

القول الأول: أنْ يُعامَل كما يُعامَل الأول.

القول الثاني: أنْ يُعاتَب عتابًا رقيقًا رفيقًا كما تقدم في النوع الأول من عتاب الصديق.

وكلا القولين سائغ، والعمل بأيِّهما جائز.

وقد أجاد أحدُ الشعراء في علاج من هذه حاله فقال[١]:

إذا كثرت ذنوبٌ من خليلٍ ... فَقِفْهُ بين وصلٍ واجتناب
وأَنْظره فَلِلْأَيام حُكْمٌ ... بذلك كلُّ ماضي العزم آبِ
وعاتِبْه فكم أَبْدَى عتابٌ ... جَلِيَّةَ مُشْكلٍ بعد ارتياب
وَرَجِّ النفعَ في الإعراض عنه ... إذا أَخْفَقْتَ من نفعِ العتاب
وراجعْه بعفوك حين يَثْنِي ... عِنانًا للرجوع أو الإياب
فإنَّ العفو عن ذي الحزم أَولى ... إذا قَدَرَتْ يداك على العتاب
فإنك واجدٌ للحيِّ ذنبًا ... وتَعْدِمُ ذنبَ مَن تحت التراب

الحالةُ الثالثة: أنْ يأتي من صديقٍ أو قريبٍ صالح أو طالح، كثرتْ زلَّاتُه، وتوالتْ أخطاؤه، أو كان الخطأُ شنيعًا مُقذعًا، فيه تجاوزٌ على الشريعة، وجُرأةٌ على الملَّة، فهذا ممَّا لا خلاف فيه بين أحدٍ بتأكّد ردعه، واسْتحباب أو وجوب زجره، حتى لا يتمادى على العباد، أو يستهين بالله تعالى ودينه.

فصاحب الفسق والفجور، أو المصر على هضم حقوق الأصدقاء والأقارب، يجبُ أنْ يُردَّ عليه ويُؤدَّبْ، وبرفقٍ مهما أمكنْ في بادئ الأمر، فإنْ تمادى فبالشدة والحدَّة.

---

(١) الصداقة والصديق، ص١٧٧.

ومِمَّا لا يُحتَمل من الصديق تعمُّدُ الإذلال والهوان، كما قال الشاعر[١]:

سأصبر من صديقي إنْ جفاني ... على كلِّ الأذى إلّا الهوانا

والله تعالى اشترط لمن عفى أن يتحقق في عفوه الإصلاح فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: وشَرَط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورًا به[٢]. ا. هـ.

وبعضُ الناس لِفساد طِباعهم قد يُفسدهم التسامح والتبسط، وقد يُجرؤهم حسن الخلق معهم، كما قال الشاعر[٣]:

أضرَّ بي حسنُ خُلْقي عند عِشْرَته ... وربما ضرَّ حسنُ الخلْق أحيانًا

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ في أمثال هؤلاء: مسامحة أهل الاسْتئثار[٤] والاسْتِغْنام[٥] والتَّغافُل[٦] ليس مروءة ولا فضيلة، بل هو مهانةٌ وضعف

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر، ص١٥٠.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٧٦٠.

(٣) الصداقة والصديق، ص٢٠٤.

(٤) هم الذين يَستأْثِرون على أصحابهم، ويستبدُّون بالأشياء دون غيرهم، ويَأْخُذون الأَجْوَدَ والأحسن، ويتركون التالف ونحوه لغيرهم.

(٥) لم أجد في كتب اللغة أصلًا لهذا التصريف، ولعل الاسْتِغْنام مأخوذٌ من اغْتَنَم الشيء؛ أي: عدَّه غنيمةً وانتهز غُنْمَه، قال في المعجم الوسيط ٢/ ٦٦٤: تغنم الشيء اغْتَنَمه، يُقال: فلانٌ يَتغنم الأمر يحرص عليه كما يحرص على الغنيمة.
فأهل الاستغنام: هم الجشعون الحريصون حرصًا مُفرطًا، ولا يُبالون في أصحابهم في سبيل نيل رغباتهم.

(٦) الغَفْلَة: فَقْدُ الشُّعورِ بما حَقُّه أن يُشعَرَ به، والذُّهولُ عن الشيءِ، وقال الراغبُ: هو سَهْوٌ يَعْتَري مِن قِلَّةِ التَّحَفُّظِ والتيَقُّظ، وقيل: متابَعةُ النَّفْسِ على ما تشتهيه. والتَّغافُلُ: تعمُّدُ الغَفْلَة. تاج العروس ٢٠/ ١٠٩. =

وتغْريةٌ لهم على التمادي على ذلك الخلق المذموم، وعون لهم على فعل ذلك السوء؛ وإنما تكون المسامحةُ مروءةً لأهل الإنصاف المبادرين إلى المسامحة والإيثار، فهؤلاء فرضٌ على أهل الفضل أن يعاملوهم بمثل ذلك، لا سيما إن كانت حاجتهم أمس وضرورتهم أشد.ا.هـ[1].

تأمل قوله: مسامحة أهل الاسْتئثار والاستغنام والتغافل.. ممَّا يعني أنهم ممَّن اتصف بهذه الصفات الرَّديْئَة، لا من تكون زلَّتُه زلَّةً طارئة.

وكذلك تكرار الخطأ والزلل لا يُحتمل ممَّن لا يَحْمِلُ المودة الصادقة لصاحبه، إنَّما هي صداقةٌ لمصلحةٍ أو حاجة.

قال أبو حيان التوحيدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونحن لم نُخالِفْ في ما عمَّمْنا به قولَ النابغة:

ولستَ بمستبْقٍ أخًا لا تَلُمْهُ ... على شَعَثٍ أيُّ الرجال المهذب

وقال آخر:

وكنتُ إذا الصديق أراد غَيظي ... وأشرقني على حنقٍ بريقي
عفوتُ ذنوبَه وصفحتُ عنه ... مخافةَ أنْ أعيشَ بلا صديق

هؤلاء إنما أوجبوا الإغضاء والاحتمال والصبر والكظم مع سلامة الإخاء، وإنما وقَفُوا بالصفح والعفو على ما يَخلو الإنسانُ يَأْنَسُ به مِن مِثْلِه، ألَا ترى النابغة يقول:

= وهذا خلقٌ ذميمٌ يكون عند بعض الصحاب، حيث لا يُراعي اهتمامًا بما يُصيب صديقه، ويتظاهر بأنه لم يعلم به، وقد يراه وهو في مُصيبةٍ عظيمة، فيمضي وكأنه لم يره.

وهذا بخلاف التغافل المحمود، وهو التغافل عن زلات الصديق وكبواته.

(١) رسائل ابن حزم، ص٣٦٤ ـ ٣٦٥.

أيُّ الـــرجـــال الـــمـــهـــذب؟

والآخر يقول:

مـخـافـة أن أعـيـش بـلا صـديـق

نقول كما قالوا، ونغفر كما غفروا لو وجدنا من يَسْلَمُ لنا جُمْلَةَ إخائِه، وإنما نشكو فَقْدَ عَمُود الإخاء الذي حُصُولُه يغفر ما دونه»[1].

(١) الصداقة والصديق، ص٤٢٢ ـ ٤٢٤.

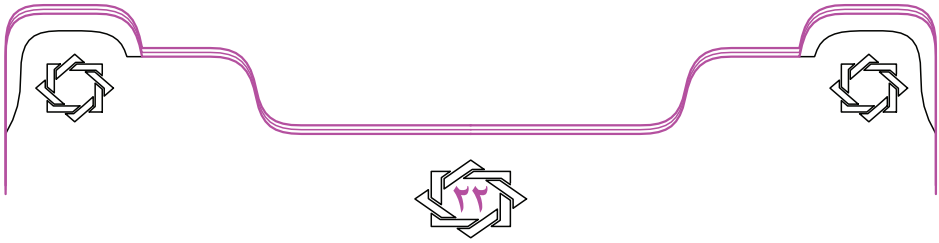

٢٢

الإصلاحُ والسعيُ في تأليفِ القلوب

إصلاحُ ذات البين، والحرصُ على لَمِّ شمل الْمُتقاطِعَين، وتقريب وجهات النظرِ من أعظم حقوق الصديق على صديقه، وهو من أعظم الأعمال عند الله تعالى.

أخرج الإمام أحمد[١] وأبو داود[٢] والترمذيُّ[٣] من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأفضلَ مِنْ درجة الصلاة والصيام والصَّدقة؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**صلاحُ ذاتِ البينِ؛ فإنَّ فسادَ ذات البين هي الحالِقةُ**».

إنَّ المكارمَ كلَّها لو حُصِّلتْ ... رُجِعَتْ بِجُمْلَتِها إلى شَيئَينِ
تَعْظِيمُ أمْرِ الله جلَّ جلالُه ... والسَّعيُ في إصْلاحِ ذاتِ البَيْنِ

فهذا العملُ العظيمُ أفضلُ مِنْ درجة الصلاة والصيام والصَّدقة المستحبة!، فيا سبحان الله! ما أزهد الكثيرَ من الناس بهذا الأجر العظيم!.

وقد رغَّب الله في الإصلاح بين المتخاصمين فقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ

(١) في مسنده ٦/ ٤٤٤.
(٢) في سننه (٤٩١٩).
(٣) في جامعه (٢٥٠٩)، وقال: «حسن صحيح».

وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ [النساء: ١١٤].

أمَّا أنْ يكون الصديقُ ضِمْنَ مجموعةٍ من الأصدقاء، فَيَحصلُ بين اثنين منهم خُصومةٌ وتقاطع، ثم لا يُحرِّك ساكنًا: فليس هذا من أخلاق الصديق الوفيّ، وخاصةً إذا ترك أحدُهم المجموعةَ برمَّتها بسبب خِصامِه مع صديقه.

ومِن أهم الأمور عند حدوث مشكلةٍ بين الأصدقاء، أنْ يُبادر الجميع إلى احتوائها، وعدم تركها تَتَراكَمُ وتَتَفاقم، وإذا لم يُبادِروا إلى ذلك، فسوف تحدث القطيعةُ والفرقة والبغضاء غالبًا.

ولا بدّ لأيِّ مجموعةٍ من الأصدقاء أنْ يُعيِّنوا مجموعةً أو أفرادًا منهم، يَحْتَكِمُون إليهم عند النزاعاتِ والخلافاتِ الصغيرةِ والكبيرة، ويرضون بما يحكمون ويقضون به.

ومن أهمِّ الأمور للحَكَم والْمُصلِح ألا يَستمعَ لطرفٍ واحدٍ مهما كان صِدْقُه وأمانته، بل لا بدَّ أنْ يستمع من الطرفين جميعًا، لتتضحَ الصورة، ويَسلمَ من الجور والظلم.

بل يُحضرهم جميعًا وجهًا لوجه، ويسمعُ كلُّ واحدٍ لوجهة نظر الآخر، فستتضحُ أمورٌ كثيرةٌ كانت غائبةً عنهم قبل المواجهة.

٢٣

الاعتذارُ إليه واسْتِعْطَافُه عند خطئك وتقصيرك

كَمْ همُ الذين تَبدُرُ منهم زلَّةٌ أو تقصيرٌ مع أصدقائهم، فلا يُسارعون في الاعتذار إليهم، وتطييبِ خواطرهم.

عوِّدْ نفسك أنْ تقول: آسف، أعتذر عن خطئي، أُقِرُّ بأني مُخطئ، وهكذا، فإن الاعتذار يُزيل ما في القلب من ضغينةٍ، ويغسل ما ألمّ به من ألَمٍ.

بل هو يُؤثر حتى على الطغاة والملوك، فهذا أحدُ الملوك يأمر بقتل رجل غَضِبَ عليه، فقال الرجل: أيها الملك، إنْ قتلتَني وأنا صادقٌ عَظُم جُرْمك، وإنْ تركتني وأنا كاذبٌ قلَّ وِزْرُك، وأنت مِن وراء ما تُريد، فعفا عنه[(١)].

«الاعتذارُ يُذهب الهموم، ويُجْلي الأحزان، ويَدفع الحقد، ويُذهب الصدّ، فلو لم يكن في اعتذارِ المرء إلى أخيه خصلةٌ تُحمد إلا نفي العُجْب عَن النفس في الحال لكان الواجب على العاقل ألا يفارقه الاعتذار عند كلِّ زلة»[(٢)].

وممَّا ينبغي تجنُّبُه عند الاعتذار: عدمُ التصريح والوضوح بطلب المسامحة والعذر، فبعضهم ربما يقول: يا فلان، إنْ كنتُ أخطأتُ فأنا

(١) التذكرة الحمدونية ١/ ٤٥٥.
(٢) روضة العقلاء، ص١٦٩.

بشرٌ أخْطئ وأصُيب!، وبعضُهم يُرسل رسالةً يقول فيها: إلى كلّ من ظلمتُه أو أخطأتُ في حقِّه أرجو مسامحتي، فأنا قد سامحتُ كلَّ أحد!!

وهذا كلُّه لا يُسمى اعتذارًا ولا رجوعًا عن الخطأ، بل هو بغيضٌ ثقيلٌ.

قال بعض السلف: رُبَّ ذنبٍ أحسنُ من الاعتذار منه؛ وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

إذا كان وجهُ العذرِ ليس بواضحٍ فإنَّ اطِّراحَ العُذْر خيرٌ من العذر

(١) التذكرة الحمدونية ١/ ٤٥٦.

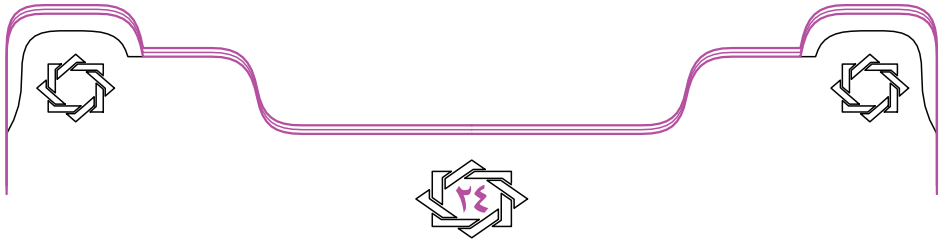

٢٤

عدمُ مُجاملته، ومراعاةِ مشاعره دائمًا

لا ينبغي للصديق التكلفُ في المجاملة، ومراعاةُ مشاعر صديقه؛ لأن ذلك يُفسده، حيث سيستمر في خطئه وغيّه.

والْمُجَامَلَة: هي حُسْنُ العِشْرَة، والمُصانَعة واللِّينُ، واللطفُ في الكلام.

يُقال: جَامَلَهُ بِكَلَامٍ عَذْبٍ: أَسْمَعَهُ كَلَامًا جَمِيلًا فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الاحْتِرَامِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُخْلِصًا فِي كَلَامِهِ.

وهي ضد الْمُصارحة.

قال أهل اللغة: جامَلْتُ فلانًا مُجاملةً، إذا لم تُصْف له المودَّة، وماسَحْتَه بالْجَميل[1].

فالمجاملةُ بين الأصدقاء دليلٌ على ضعفِ المحبة والمودَّة بينهم، وإلا لَمَا جامل بعضُهم بعضًا على كلِّ حال، ولَمَا سكتوا عن أخطاءِ وعيوب بعضهم؛ لأنَّ الْمُحبَّ الناصحَ لا يرضى لصديقه أنْ يكون فيه عيوبٌ ثم لا يُنبِّهُه عليها.

وتسود المجاملة بين الأصدقاءِ إذا كان بينهم خوفٌ مِنْ أنْ يغضب أحدُهم إذا نُقد أو عُرِّف بسلوكٍ أو عملٍ خاطئ، ولو كانت المحبةُ والثقةُ موجودةً لَمَا وُجد هذا الخوف.

(١) تهذيب اللغة للأزهري ١١/ ٧٦.

والكثير من الناس يتكلَّف المجاملة إلى حدٍّ يصل فيه إلى إحراج نفسه، والْمُداهنة في دينه، والتنازل عن حقوقه.

فربما ارتكب الصديقُ حماقةً أو تصرُّفًا سيِّئًا في حقِّه، أو في حقِّ بعض الناس، فيُجامله خشية أنْ يُغضبَه، أو يأخذَ في خاطره، فهذه المجاملة أضرَّت بهما جميعًا، أضرَّت بالأول حيث لم يجد من يردعه فيتمادى في خطئه وتصرُّفه السيّئ.

وأضرَّت بالآخر حيث اعتُدي عليه، أو أُخذ بعض حقِّه.

بل ويتعدَّى الضرر إلى غيرهما، حيث سيكرر خطأه مع كلِّ أحد.

ومن جاملَ صاحبه فلم يُخبره بعيبه فقد غشَّه، وأضرَّ به ضررًا بالغًا.

وقد رمى بك في تيهاء مهلكةٍ مَن بات يكتمك العيب الذي فيكا

فيجب على الصديق ألا يُجامل صديقه إذا أخطأ خطأً فادحًا.

ولا يعني ذلك الْمُبالغة في الصراحة، بل ينبغي تَجُنُّبُ التصريحِ في موضعٍ يُغني عنه التلميح.

والصدعُ بالحق لا يعني التصريح دائمًا، بل إنَّ الحكيم العاقل: هو الذي يقول كلمةَ الحق، بلا مفاسدَ يَنْتُج عنها.

والمتهورَ الْمُندفع: هو الذي يُطلق التصريح في أمرٍ يُغني عنه التلميح، وخاصةً إذا ترتب على تصريحه ما يُسبب فرقةً، ويُحمل كلامُه على أسوأ محمل.

قال الجرجانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَجمعَ الجميعُ على أن الكنايةَ أَبْلَغُ منَ الإفصاحِ، والتعريضَ أَوْقَعُ من التَّصريح.ا.هـ[1].

(١) دلائل الإعجاز، ص١١٣.

وإنَّ لنا في رسول الله ﷺ أُسوةً حسنة، فقد كان كثيرًا ما يُلمِّحُ ولا يُصرح، وذلك لأنه يُريد أنْ يُؤلفَ بين القلوب، لا أنْ يفضحَ ويتشفَّى بذكرِ العيوب.

تقول عائشةُ رضي الله عنها: كان رسولُ الله ﷺ، إذا بلغه عن الرجل شيئًا لم يقل: ما بال فلانٍ يقول كذا؟ ولكن يقول: ما بال أقوامٍ يقولون كذا وكذا؟[١].

هكذا كان ﷺ يقول عندما يرى خطأً صريحًا.

فمن الخطأ أنْ نعتقد أنَّ الشجاعة الْمحمودة: هي في التصريح دائمًا، والكلامِ عن كلِّ شيء، ولو ترتب على ذلك مضرَّةٌ للقائل أو لغيره.

فهذا أَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يقول: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ ـ أي نَوْعَيْنِ مِنْ الْعِلْم ـ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ. رواه البخاري[٢].

(١) رواه أبو داود (٤٧٨٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(٢) (١٢٠).

٢٥

ألا يستمع للنمام، وأنْ يُلْجمه ويُدافعَ عن صديقه

هذا من أهم ما يجب على كلِّ عاقلٍ فضلًا عن الصديق الناصح أنْ يقوم به، وإلا فسد دينه، وانثلمتْ صُحبته، وكُرهتْ معرفتُه.

ولْنستمع إلى هذه الوصية البليغة من الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه، فإياك أن تبادره بالعداوة وقطعِ الولاية، فتكون ممَّن أزال يقينه بشك، ولكن الْقه وقل له: بلغني عنك كذا وكذا، واحذر أن تسمِّيَ له المبلِّغ، فإنْ أنكر ذلك فقل له: أنت أصدق وأبرُّ، لا تزيدنَّ على ذلك شيئًا، وإن اعترف بذلك فرأيت له في ذلك وجهًا لعذر، فاقبل منه، وإن لم تر ذلك فقل له: ماذا أردت بما بلغني عنك؟ فإن ذكر ما له وجهٌ من العذر فاقبل منه، وإن لم تر لذلك وجهًا لعذرٍ وضاق عليك المسلك، فحينئذ أثْبِتْها عليه سيِّئَة، ثم أنت في ذلك بالخيار: إن شئت كافأته بمثلها من غير زيادة، ولا تبخسن باقي إحسانِه السالفِ بهذه السيئة؛ فإنَّ ذلك الظلمَ بعينه، وإن شئت عفوت عنه، والعفو أقرب للتقوى وأبلغُ في الكرم؛ لقول الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠][(١)].

ومعنى النميمة: هي نقل الكلام بقصد الإفساد، تقول: فلانٌ كان يتكلم فيك بكذا وكذا.

(١) صفة الصفوة ٢/ ٥٥٣.

وحقيقة النميمة: إفشاء السر، وهتك الستر عما يُكره كشفه.

ويا من حُملتْ إليك النميمة، وقيل لك: إن فلانًا قال فيك كذا وكذا، سمعتُ صاحبَك فلانًا يقول عنك كذا وكذا، فيجب عليك تجاه هذا النمام ـ مهما كان ثقةً عندك ـ عدَّة أمور:

أولًا: ألا تُصدقه؛ لأن النمام فاسق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦].

ومن يطعِ الواشينَ لا يتركوا لهُ صَديقًا وَإنْ كَانَ الحَبِيبَ الْمُقَرَّبَا

ثانيًا: أن تزجرَهُ عن ذلك وتنصحه، وَتُقَبِّحَ لَهُ فِعْله وتُشنِّع عليه عمله السيئ.

ثالثًا: أن تُبغضه في الله تعالى إِنْ لَمْ يَنْزَجِر.

رابعًا: ألا تظن بأخيك السوء، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات: ١٢].

خامسًا: ألا ترضى لنفسك ما نهيت عنه النمام، ولا تحكِ نميمته فتقول: قد حُكى لي كذا وكذا، فتكون به نمامًا ومغتابًا.

بل ينبغي لك أنْ تُقابل الصديق الذي جاءك كلامٌ عنه، وتقول له: يا فلان، لقد سمعت أنَّك تقول عني كذا وكذا، وأنا لا أصدق ذلك أبدًا، فأنا أثق بك ولا أثق بمن نقل لي هذا الكلام، ولكن ليطمئنَّ قلبي.

واحذر أنْ تقول لمن نقل لك كلامًا عن أحد: بأنه ثقةٌ عندي، فلو كان ثقةً ما عصى الله بنقل الكلام.

عاتب مُصْعَب بن الزبير الأحنف بن قيس رحمهما الله على شيءٍ بلغه عنه، فاعتذرَ إليه الأحنفُ مِن ذلك ودَفَعه: فقال مُصعَبٌ: أَخبرني

بذلك الثِّقَةُ: فقال الأحنفُ: كلَّا أيها الأميرُ، إن الثقةَ لا يُبَلِّغُ[١].

إذا الواشي نَعَى يومًا صديقًا فلا تدع الصديق لقول واشي

والنمام من أكثر الناس فسادًا وضررًا.

قال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: يفسد النمام في ساعة، ما لا يفسد الساحر في شهر[٢].

واعلم ـ أيها الصديق ـ أنَّ مَن نقل لك كلامًا عن صديقك، فقد ينقل لصديقك أو لغيره كلامًا عنك لا ترضاه، فاحذرْ أنْ تأْتَمِنَ النَّمَّام.

مَنْ نَمَّ فِي النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقاربُهُ عَلى الصَّدِيقِ وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفاعِيه

«ولا بد لِمَنْ عُرف بها، ونُسِبَ إلى مقارفتها، مِن أنْ يُحْتَرَسَ مِن مُجالسته، وألا يُوثَقَ بِمَودَّته، وأنْ يُزْهَدَ في مُوَاصلَتِه ومعاشرتِه»[٣].

وكذلك يجب على الصديق ألا ينقل لصديقه كلامًا ـ لا ينبغي ـ قاله أحد الأصدقاء عنه، بل يجب أنْ يُناصِحَه ويُحذره من الغيبة، وأنْ يسعى للإصلاح دون أنْ يشعر الصديق الآخر بأن صديقه الفلاني قال عنه كذا وكذا.

ولْيستحضر وَعِيْدَ النبيّ ﷺ للنمام بالحرمان من الجنة حيث قال: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ**». متفق عليه[٤].

فنقل الكلام لا يجوز شرعًا ولا عقلًا ولا مُروءةً، إلا إذا كان لمصلحةٍ راجحة، كأنْ تُحذر صديقك من صديقه الفلاني، حيث ثبت أنه

(١) عيون الأخبار ٢/٤١٧.
(٢) الحلية (تهذيبه) ١/٤٥٦.
(٣) روضة العقلاء، ص١٦٠.
(٤) البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

فاجرٌ فاسد، فهنا يجوز بل يجب أنْ تُحذره منه، وتنقل له ما شاهدتَّه منه.

قَالَ النَّوَوِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذَا كُلّه إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي النَّقْل مَصْلَحَة شَرْعِيَّة، وَإِلَّا فَهِيَ مُسْتَحَبَّة أَوْ وَاجِبَة، كَمَنْ اِطَّلَعَ مِنْ شَخْص أَنَّهُ يُرِيد أَنْ يُؤْذِي شَخْصًا ظُلْمًا، فَحَذَّرَهُ مِنْهُ، وَكَذَا مَنْ أَخْبَرَ الْإِمَام أَوْ مَنْ لَهُ وِلَايَة بِسِيرَةِ نَائِبه مَثَلًا، فَلَا مَنْع مِنْ ذَلِكَ»[1].

وحفظُ عرض صديقك من أعظم حقوقه، والدفاع عنه ممَّن يغتابه أو يتنقَّصُه، أما أنْ ترى أحدًا يتهجم عليه دون وجه حقٍّ ثم تسكت أو تُداهن، فهذا لا يليق بالصديق أبدًا.

(١) شرح النووي لمسلم ١٠/ ٥٨١.

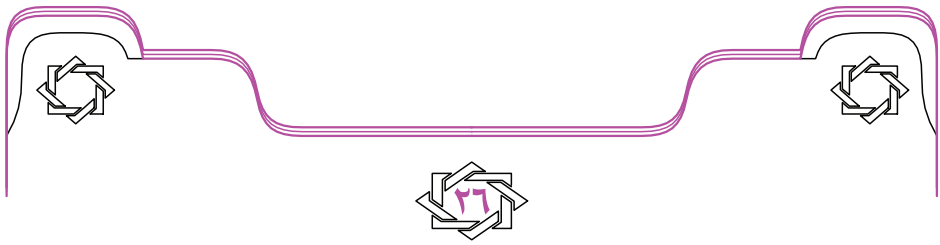

٢٦

أنْ تحفظ أسراره، وتكتم ما طلب منك كتمانه

من أعظم الأمانة: حفظ السر، ومن أعظم الخيانة: نشر السر، وما أودع الصديق سرَّه لِصَديقه إلا حينما ائْتمنه ورآه محلًا للثقة، فهل يليق به أنْ يَخُونه ويضرَّه؟.

إذا ما خَلِيلي خَانَنِي وائْتَمَنْتُه ... فذاكَ وَدَاعِيه وذاك ودَاعُها
رَدَدْتُ عليه وُدَّهُ وتَرَكْتُه ... مُطَلَّقَةً لا يُسْتَطَاعُ رِجَاعُها

لتكن ـ أيها الصديق ـ كما قال الشاعر الحكيم[١]:

فإن ضيَّعَ الإخوانُ سِرِّيْ فإنني ... كَتومٌ لأسرارِ الصَّدِيْقِ أَمِينُ
يكون له عندي إذا ما اتَّهَمْتُه ... مَكَانٌ بِسَوداء الْفُؤادِ مَكِينُ

ولا بد للصديق أنْ يبوح بأسراره لصديقه، ويكشفَ له عن دقائق حياته كما قال الشاعر[٢]:

ولا بُدَّ من شَكْوَى إِلى ذي مُروءَةٍ ... يُوَاسِيكَ أَوْ يُسْلِيكَ أو يَتَوَجَّع

فلا يليق بذي المروءَةِ أنْ يُذيع أسرار صديقه، ويُشيع خواصَّ حياته، ويستهين بكلامٍ خصَّه به دون غيره.

(١) الصداقةُ والصديق، ص٣١٨.
(٢) ديوان بشار بن بُرد، ص٩١٤.

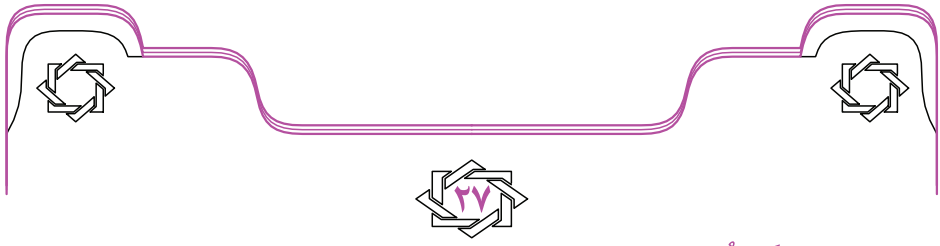

٢٧

مُخاطَبَتُه بألطف العبارات، وإخباره بمشاعرك

لا بدّ للصديقِ أنْ يتلطف مع أصدقائه بالكلام اللين الرقيق، وأنْ يبتعد عن الكلمات النابية القاسية، وأنْ يُجاملَهم بما لا محذور فيه.

فقل لصديقك: إني أحبك يا فلان، قل مرَّةً: كم أعجبني فيك هذا التصرف الجميل، أَسْمعه هذه العبارة: لقد أسعدتني وشرحتَ صدري بقولك كذا، أو بفعلك كذا.

كم جذبت هذه العباراتُ العذبةُ قلوبًا نافرةً، وكم أسعدتْ أفئدةً جامحة، وكم لها من الأثر الكبير في دوام الصحبة وتقويتها.

وبالمقابل: كم شتَّتَ الكلام القاسي والعبارات الفظة الغليظة من أصدقاء، وكم فرقت من أحبابٍ أوفياء، ويا سبحان الله، ماذا يضر هؤلاء لو استخدموا الكلمات الهينة اللينة، فتنشرح بسببها الصدور، ويصفو الود، وتسود المحبة والألفة؟.

وقد أرشدنا ربنا إلى ذلك فقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج

الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة». ا. هـ[(١)].

وقد أرشدنا نبيُّنا ﷺ إلى إبداء المشاعر الطيبة تجاه أخينا المسلم فقال: «**إِذا أَحبَّ أَحدُكُم أَخاهُ فَليُعلِمهُ أَنهُ أَحبَّهُ**»[(٢)].

فالكلام الطيب اللين، وإبداءُ المشاعر الصادقة، وتَعاهُدُه بذلك: من أعظم حقوق الصديق على صديقه، وهي سببٌ في دوام العشرة، وتقوية روابط الصحبة، وإذهاب الضغائن والخواطر السلبية من النفوس.

احرصْ على حفظِ القلوب مِن الأذى ... فرجوعُها بعد التَّنافر يَعْسُر
إنَّ القلوبَ إذا تنافر وُدُّها ... مثلُ الزجاجةِ كسرها لا يُجْبَرُ

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللهُ: من أضاع تَعَهُّدَ الوُدِّ مِن إخوانه حُرِمَ ثَمَرَةَ إخائِهم، وآيَسَ الإخوانَ مِن نفسه. ا. هـ[(٣)].

❁ ❁ ❁

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٩.
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٢١)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.
(٣) روضة العقلاء، ص٩١.

٢٨

مُداراة مَن في طبعه حدَّةٌ أو عيبٌ

الصبرُ على بعض الأصدقاء الذين فيهم جفاءٌ أو حِدَّةٌ، وخاصةً أصدقاء العمل، والمعارف العامة ومُداراتهم من أهمّ ما ينبغي على العاقل أنْ يقوم به، ومن لم يصبر عليهم طواعيةً قد يضطر إلى الصبر عليهم مُرغمًا، كما قال الشاعر(١):

وإني إذا لم أَصبر اليوم طائعًا فلا بدّ منه مُكرهًا غيرَ طائعِ

ولنتأمل هذا الحديث العظيم: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ، فَلَمَّا جَلَسَ، تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ، وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ، قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ**». رواه البخاري(٢).

فالنبيُّ ﷺ أخبر عائشة بأن هذا الرجل سيء، حتى لا يغترَّ به أحد، فلما دخل على النبي ﷺ، لم يُظهر له ما في قلبه، ولم يُبد له

(١) الصداقة والصديق، ص٢٣١.
(٢) (٦٠٣٢).

التذمر والعبوس، بل تبسم وهشَّ وبش في وجهه، فما أجمل أن يستحضر هذا الحديث من يستدل على فعله بمقولةٍ خاطئة: ما في قلبي يكون على لساني، أو يقول: أنا لا أجامل أحدًا، أو يقول: المجاملة والمداراة من قبيل النفاق والخوف والجبن، ونحو هذا الكلام المجانب للصواب.

«فلقاء رسول الله ﷺ لهذا الرجلِ المعروفِ بالبذاءةِ: من قبيل المداراة؛ لأنه لم يزد على أن لاقاه بوجه طلق، ورَفَقَ به في الخطاب.

وقد سبق إلى ذهن عائشة رضي الله عنها، أن الذي بلغ أن يقال فيه: بئس أخو العشيرة، وبئسَ ابنُ العشيرة: لا يستحق هذا اللقاء، ويجب أن يكون نصيبُه قسوةَ الخطاب، وعُبُوسَ الجبين.

ولكنَّ نَظَرَ رسولِ الله ﷺ أبعدُ مَدَىً، وأناتَه أطول أمدًا؛ فهو يريد تعليم الناس كيف يملكون ما في أنفسهم؛ فلا يَظْهَر إلا في مكان أو زمان يليق إظهاره فيه»[(١)].

«والفرق بين المداراة والمداهنة: أن المداراة بذلُ الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين، وهي مباحة ومستحسنةٌ في بعض الأحوال، والمداهنة المذمومة المحرمة: هي بذل الدين لصلاح الدنيا»[(٢)]

قَالَ النووي رحمه الله: والنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَمْدَحهُ، وَلَا ذَكَرَ أَنَّهُ أَثْنَى عَلَيْهِ فِي وَجْهه وَلَا فِي قَفَاهُ، إِنَّمَا تَأَلَّفَهُ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا مَعَ لِين الْكَلَام.ا.هـ[(٣)].

(١) أدب الموعظة للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد، ص١٣.
(٢) فتح الباري ١٠/ ٤٥٤.
(٣) شرح النووي على مسلم ١٦/ ١٤٤.

وتشتد الحاجة إلى المداراة، والكلام اللين الحسن، في حق كثيرٍ من الأقارب وأصدقاء العمل، فإن لم تفعل ذلك، نفروا منك، بل وربما طالكَ الأذى منهم.

قال محمد بن الحنفية رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدًّا، حتى يجعل الله له منه فرجًا.

فما أجمل المداراة، وما أعظم أثرها.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: حُسْنُ السؤالِ نصفُ العلمِ، ومُداراةُ الناسِ نصفُ العقلِ، والقصدُ في المعيشة نصفُ المؤونةِ.

والعاقلُ يستعمل المداراة حتى مع بعضِ أعْدَائِه، الذين يعلم أنَّه لو كاشفهم العداء، وأبَان لهم البغضاء، لألحقوا به الأَذىَ والضرر.

ولَمْ أَرَ في الخُطُوبِ أشَدَّ هَوْلًا ... وأصعبُ مِنْ مُعاداةِ الرِّجالِ

بل العاقل الفطن: الذي يستفيد من أعدائه، ويرى مِحْنتهم مِنْحة.

عِداتي لهم فضلٌ عليَّ ومِنةٌ ... فلا أذْهبَ الرحمٰنُ عنِّي الأعاديا

همُ كشفوا عن زلَّتي فاجْتَنَبْتُها ... وهمْ نافسوني فاكْسبْتُ الْمَعاليا

«ذَلِكَ بِأَنَّ الْعَدُوَّ يُنَقِّبُ عَنِ الزَّلَّاتِ، وَيَبْحَثُ فِي الْهَفَوَاتِ، وَطَالِبُ الْحَقِّ يَتَوَجَّهُ دَائِمًا إِلَى الِاسْتِفَادَةِ مَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالنَّظَرِ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ إِلَى مَوْضِعِ الْعِبْرَةِ وَطَرِيقِ الْحَقِيقَةِ، فَإِذَا وَجَدَ فِي كَلَامِ الْعَدُوِّ مَغْمَزًا صَحِيحًا تَوَقَّاهُ، أَوْ عِثَارًا فِي طَرِيقِهِ نَحَّاهُ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ بَاطِلٌ ثَبَتَ عَلَى حَقِّهِ، وَعَرَفَ مَنَافِذَ الطَّعْنِ فِيهِ فَسَدَّهَا، فَكَانَ بِذَلِكَ مِنَ الْكَمَلَةِ الرَّاسِخِينَ»[(١)].

ومن الحكمة ألا يَشعُر أحدٌ بأنك تُعاديه وتُضْمِرُ له الكره، إلا الْمُعانِدين من الكفار والفُجَّار.

(١) ٢/ ٢١ ـ ٢٤.

قال بعضهم: أعظم لخَطَرِك ألا تُريَ عدوك أنه لك عدو[١].

وكن معهم كحال الشاعر الحكيم:

أُجَامِلُ ذا الضَّغْنِ الْمَبَيِّنِ ضغْنَه ... وأَضْحَكُ حتى يبدوَ النَّابُ أجْمَعُ
وأُهْدِيْه عَمْدًا بالْمَقُوْلِ ولَوْ يَرَى ... سَرِيْرَةَ مَا أُخْفِي لَظَلَّ يُفَزَّعُ

وما أجمل ما قال الشاعر[٢]:

لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أحْقِدْ عَلَى أحَدٍ ... أرحتُ نفسيَ من همِّ العَداواتِ
إنِّي أُحَيي عَدُوِّي عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ... لأدفعَ الشَّرَّ عني بالتحياتِ
وأُظْهِرُ الْبِشرَ لِلإِنْسَانِ أُبْغِضهُ ... كأنَّما قدْ حَشى قَلْبي مَحَبَّاتِ
النَّاسُ داءٌ وَدَاءُ النَّاسِ قُرْبُهُمُ ... وفي اعتزالهمُ قطعُ المودَّاتِ
فلستُ أَسْلمُ ممَّن لستُ أعرفُه ... فكيف أَسلمُ مِن أهلِ المودَّات
ألقى العدوَّ بوجهٍ لا قُطُوب به ... يكاد يقْطُر من ماءِ البشاشات
وأحْزَمُ الناسِ من يلقى أعاديَه ... في جسمِ حِقْدٍ وثوبٍ من مودَّاتِ

وأحوج ما يكون العاقل لمداراته، وعدمِ إظهار مُعاداته صنفان من الناس:

- الذي ليس بينه وبينه حسبٌ فيكفُّ أذاه مُراعاةً لسمعة حسبه ونسبه.

- ومن لا دين عنده يردعه عن الوقوع في عرضه.

بلاءٌ ليس يشبهه بلاء ... عداوةُ غيرِ ذي حسبٍ ودين
يُبيحك منه عرضًا لم يصنه ... ويرتع منك في عرضٍ مصون

(١) الصداقة والصديق، ص٦٦.
(٢) الصداقة والصديق، ص٦٧، ديوان الشافعي، ص٤.

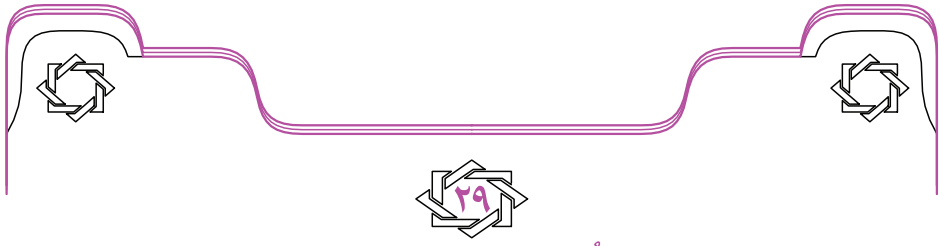

٢٩

ألا تُجادله إلا بالحسنى

اعلم أيها الصديق المبارك أنَّ دين الإسلام حثَّ على كُلِّ ما فيه أُلْفةٌ وموَدَّة، واجْتماعٌ وترابط، ونهى عن كلِّ ما يُسبِّب العداوةَ والبغضاءَ، والتنافرَ والْفُرقة، ومِمَّا جاء الإسلام بالتحذير منه: المراءُ والجدال، ولو كان مع أحدِهما الحقُّ، فإنَّ الخصام يُضيِّعه ويُبطله في الغالب.

ولا يعني هذا أنْ يتنازل صاحب الحقِّ عن حقِّه، ويُترَكَ الظالمُ والمعاندُ دون محاسبةٍ وردْع، فإنَّ لِأَخذِ الحقِّ طُرُقًا ليس منها الجدال والخصام، وذلك برفعه لوليِّ الأمر لينتزعَ حقَّه، أو بالْمُناقشة الهادئة.

واعلم أنَّ الْمراء والجدال المذموم، هو ما يكون فيه أحدُ أمورٍ ثلاثة:

- إما أنْ يكون معه حدَّةٌ وغضبٌ وقسوة.
- وإما أنْ يكون بلا تثبُّتٍ ومعرفة.
- وإما أنْ يكون عديمَ الفائدة.

ومن أقرب الأمثلة على ذلك: ما نراه في كثيرٍ من مجالسنا، مِن جدال بعضنا لبعض، في أمورٍ تافهة لا مصلحةَ من نتائجها، كأنْ يتجادل الأصدقاء في الفريق الفلانيّ، وأنه أفضلُ من الفريق الآخر، أو أنَّ المركب الفلانيَّ أفضلُ من غيره، وكذلك الجدال في الجماعات والحكومات، من مُؤيِّدٍ ومُعارض، والنتيجةُ من هذه الْمُناقشات

والْمُجادلات: لا شيء، سوى تعكير المزاج والخواطر، وإضاعةِ الوقت، وإحْداثِ الفرقةِ والعداوة، وإطْلاقِ الألفاظ القاسيةِ والجارحة.

ولأجل هذا جاءت الشريعةُ الإسلاميَّةُ العظيمة: بالتحذير من هذه الْمُجادلات العقيمة، والْمُناقشات الْمُنعدمةِ الفائدة، وإليكم هذه الأدلةَ الصحيحة الصريحة:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ، لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا**». رواه أبو داود[(١)] وحسَّنه الألباني.

ومعنى قَوْلِه: «**وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاء**»: أَيْ: الْجِدَال، وذلك خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقَع صَاحِبه فِي الخصام والغضب، الْمُسبِّبِ للعداوة والفرقة.

وقَوْلُه: «**وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا**»: أي: وإن كان ذا حقٍّ في نفس الأمر؛ وذلك لأنه بعد أن يُرشدَ خصْمَه إلى الحقّ، ويأبى خصمُه قبولَه والإذعانَ له، وهو يعرف أنْ خصمه مُعاندٌ لا يقبل الحق، فلا ثمرة ولا فائدة مِن جداله، سوى تضييعِ الوقت فيما لا ينفع، وإحداثِ البغضاء والحقد.

فالنبيّ ﷺ ضمن وتكفّل لِمَن ترك الجدال والمِراء ـ وإنْ كان على حقٍّ ـ طلبًا لِمَرْضاةِ الله تعالى، وسعيًا لِلْأُلْفة ونَبذِ الخصومة، ضمن له مكانًا في الجنة، وذلك بأنْ يُثبِّته الله على الدين، ويُجنِّبه الزيغ والضلال، جزاءً على فعله العظيم.

فالجدال الذي يُؤدي إلى الخصومة والشقاق والوحشة، لا بدَّ أنْ نبتعدَ عنه حتى تسلم القلوب، وتصفو النفوس.

وتأمل ـ أيها الصديق ـ ما جاء في «الصحيحين»[(٢)] أنَّ رسول الله ﷺ

---

(١) (٤٨٠٢).

(٢) البخاري (٥٠٦١)، ومسلم (٢٦٦٧).

قال: «**اِقْرَءُوا الْقُرْآن مَا اِئْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبكُمْ**»؛ أَيْ: اِجْتَمَعَتْ، «**فَإِذَا اِخْتَلَفْتُمْ**»؛ أَيْ: فِي فَهْمِ مَعَانِيه «**فَقُومُوا عَنْهُ**». قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَيْ: تَفَرَّقُوا؛ لِئَلَّا يَتَمَادَى بِكَمْ الِاخْتِلَاف إِلَى الشَّرّ.ا.هـ[(١)].

فهذا الحديث من أوضح الأدلة والبراهين: في النهي عمَّا يُنفر ويُحدث الخلاف بين المسلمين، فإذا كان قراءةُ القرآن والجلوسُ لسماعه، ومعرفةُ تفسيره ومعناه ـ وهذا من أعظم العبادات ـ ينتج عنه اختلافٌ: فإننا نقوم عن هذه العبادة، ولا نستمر في هذه الجلسة التي فيها القراءة والعلم، فكيف بمجالسَ عامةٍ لا يُوجد فيها ذكرٌ ولا قراءةُ قرآن، ويُطرح فيها ما يُسبب الخلاف والتفرقة، من التعرُّض للجماعات أو الأشخاص أو الحكومات، فهذه المجالس أولى أنْ يُقام عنها، وتُترك وتُهجر.

واعلم أنَّ مَنْ كان شديدًا في جِداله وخِصامه: فهو من أبغض الناس عند الله تعالى، قَالَ ﷺ: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ**». متفق عليه[(٢)].

قال العلماء: الْأَلَدّ: هو الشَّدِيد في جِدَالِه، وهو الذي كلَّما فُتح بابٌ للجدال كان أسرَعَهم إليه، وأقواهم مُجادلةً فيه، بلا بحثٍ وعلمٍ ومعرفة.

وهذا هو حال الكثيرِ من الناس في مُناقشاتهم وجدالهم، تأتي قضيَّةٌ من القضايا، فيَحْتَدُّ النقاش والجدال، ولم يُكلف أحدُهم نفسه أنْ يبحث ويتأكد فيما قاله.

---

(١) فتح الباري ٩/ ١٢٩.

(٢) البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

فلْيتجنب الصديق اللبيب هذه الْمُجادلاتِ مع أصدقائه، فإنَّها هي التي أفسدت قلوب كثيرٍ من الأصدقاء، وأوجدتْ فيها الوحشةَ والحقد.

وقد قيل: استدمْ مودةَ أخيك بترك الخلاف عليه، ما لم تكن عليك مَنْقَصةٌ أو غَضَاضةٌ[١].

وإذا كان لا بُدَّ من النقاش والجدال، فلْيكن عن علمٍ ومعرفة، ورفقٍ وتُؤَدة، فقد أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ، بأنْ يُجادل غيرَه بالتي هي أحسن، فقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفقٍ ولينٍ، وحسنِ خطاب.ا.هـ[٢].

وأمر تعالى المؤمنين أنْ يُجادلوا الكفار بالجدال الحسن، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فقد أُمِرْنا ـ معاشر الأصدقاء ـ أنْ نُجادل أهلَ الكتاب بالتي هي أحسن، فما بال بعضنا يُجادلُ أخاه بالتي هي أقبحُ وأخشن.

ولقد أكثَرَ السلفُ الصالح رحمهم الله من ذمِّ الجدال العقيم، وحذَّروا منه وبيَّنوا خطره، فهذا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: الْمِراءُ لا تُعقل حكمته، ولا تؤمن فتنته[٣].

وقال بعض السلف: إذا أراد الله بعبدٍ شَرًّا، أغلق عنه بابَ العمل، وفتح عليه بابَ الجدَل[٤].

---

(١) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/ ٣٣٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦١٣.
(٣) موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/ ٩٤.
(٤) السير (تهذيبه) ٢/ ٨٢٦.

وقال آخر: دع المراء والجَدلَ، فإنَّك لنْ تُجادل إلا أحدَ رجلين، إما رجلٌ هو أعلم منك، فكيف تعادي وتُجادلُ مَن هو أعلمُ منك؟.

وإما ورجلٌ أنت أعلمُ منه، فكيف تعادي وتُجادِل من أنت أعلمُ منه ولا يُطيعُك؟[١].

وقال بعض السلف: لا أماري صديقي، فإما أن أُكَذِّبه، وإما أن أُغضبه[٢].

صدق رَحِمَهُ اللَّهُ، فالصديق حينما يُجادل صديقه ويستميت في إقناعه بصواب رأيه فإنه بين أمرين:

- إما أنْ يَخْلُصَ إلى خطأ صاحبه، وكذبه وفساد رأيه.
- وإما أن يُغضبه، ويُحدث في قلبه عداوةً، وفي خاطره تكدُّرًا.

والعاقل يتلافى هذين الأمرين، فكيف يستميت في تحصيلهما!!.

(١) السير (تهذيبه) ٢/ ٥٥٤.

(٢) الصداقة والصديق، ص٧٨.

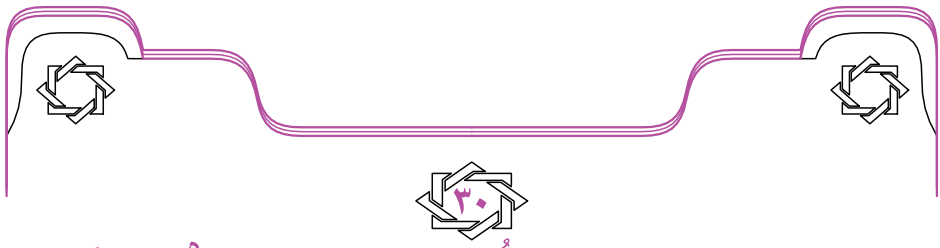

٣٠
ألا تَحْسِدَهُ على خيرٍ أُعْطِيَه، أو فضلٍ اكْتَسَبَهُ

الحسد داءٌ يصعب شفاؤه، والْمُبتلى به لا يُمكن إرضاؤه، والخيرُ كلُّ الخير في فراقه.

كلُّ العداوة قد تُرجى إماتتُها ... إلَّا عداوة من عاداك من حسد[١]

قال معاوية رضي الله عنه: كلُّ الناس يمكنني أن أرضيه إلا الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتي![٢].

والحاسد إنما هو في الحقيقةِ أساءَ إلى الْمُنعم جل وعلا.

ألا قُل لمن كان لي حاسدًا ... أتدري على من أسأتَ الأدب
أسأتَ على الله في فعْلِه ... لأنَّك لم ترض ما قد وهب

ولا يُتصوَّر أنْ يحسد صديقٌ ناصحٌ مُخلصٌ صديقه، إنما يفعل ذلك مَن يتظاهر بالصداقة، أو اتخذها لأجل مصلحةٍ أو حاجة، ولذا، تقدَّم التأكيد على العناية باختيار الصديق.

قال الشيخ محمد رشيد رحمه الله في قصّةِ قتلِ قابيل هابيل: وَأَكْبَرُ الْعِبَرِ فِي الْآيَةِ أَنَّ قِصَّةَ ابْنَيْ آدَمَ أَقْدَمُ قِصَّةٍ تَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ الْحَسَدَ كَانَ مَثَارَ أَوَّلِ جِنَايَةٍ فِي الشَّرِّ، وَلَا يَزَالُ هُوَ الَّذِي يُفْسِدُ عَلَى النَّاسِ أَمْرَ اجْتِمَاعِهِمْ، مِنِ

(١) ديوان الشافعي، ص٧.
(٢) مُحاضرات الأدباء ١/١١٦.

اجْتِمَاعِ الْعَشِيرَةِ فِي الدَّارِ إِلَى اجْتِمَاعِ الْقَبِيلَةِ إِلَى اجْتِمَاعِ الدَّوْلَةِ، فَتَرَى الْحَاسِدَ تَثْقُلُ عَلَيْهِ نِعْمَةُ اللهِ عَلَى أَخِيهِ فِي النَّسَبِ أَوِ الْجِنْسِ أَوِ الدِّينِ، وَهُوَ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِمِثْلِهَا لِيَنَالَهَا، فَيَبْغِي عَلَى أَخِيهِ، وَلَوْ بِمَا فِيهِ شَقَاؤُهُ هُوَ[1].

(١) ٦/ ٣٠٥.

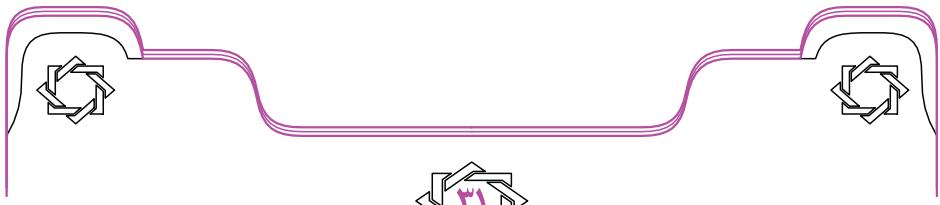

٣١

البشاشةُ وطلاقة الوجه

إنَّ طلاقةَ الوجه وحسن البشاشة والبشر لهي السِّحر الحلال الجذَّاب، وهي التي تستولي على العقول والألباب، وصاحب البِشْرِ محمودةٌ أفْعاله، مقبولةٌ هنَّاته، بخلاف العابس الْمُقطِّب، الْمُتجهِّم الشَّاحب، فهو والله ممَّا يُستعاذُ منه، وتَستولي على القلب كُرَبٌ وضِيقٌ عند لَقَائه.

أخو البِشْرِ محمودٌ على حُسْنِ بِشْرِه ... ولن يَعْدِمَ البغضاءَ مَن كان عابسًا

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللهُ: البشاشةُ إدامُ العلماء، وسجيةُ الحكماء؛ لأنَّ البِشْرَ يُطفيءُ نار الْمُعانَدة، ويُحْرِقُ هَيَجان الْمُباغَضة، وفيه تَحْصين من الباغي، ومَنْجاةٌ من الساعي، ومَن بَشَّ للنَّاس وجهًا لم يكن عندهم بِدُون البَاذِلِ لَهُم مَا يَمْلِكُ[(١)]. ا. هـ.

والبشاشةُ وصدقُ الابتسامة أحوج ما يرجوه الصديق من صديقه، والقريب من قريبه، بل ولا يستغني عنها أحدٌ مهما كان.

فهذا إمامنا وقدوتنا ﷺ، لا يراه أصحابُه إلا مُبْتسمًا، قَالَ جَرِيرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا رَآنِي النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي. متفق عليه[(٢)].

يا أَخِيْ لا تُمِلْ بِوَجْهِكَ عنّي ... ما أنَا فَحْمَةٌ ولَا أنْتَ فَرْقَدُ

---

(١) روضة العقلاء، ص٦٥.

(٢) البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (٢٤٧٥).

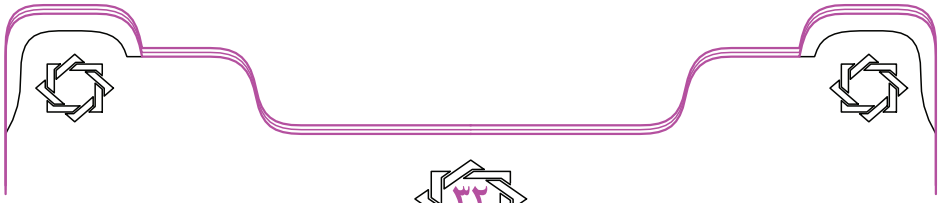

٣٢

أنْ تردّ عليه جوابًا إذا راسلك أو كاتبك

بعض الأصدقاء لا يُعير اهتمامًا لرسائل أصدقائه ومُكاتباتهم له، فربما رآها لا تستحق الجواب، أو يقول في نفسه: إذا قابلته شكرتُه عليها، أو ناقشتُه عنها، فيتهاون ويُسوِّف إلى أنْ ينسى أو يتناسى.

إذا كتبَ الصديق إلى صديقٍ فقد وجب الجواب عليه فَرْضًا

وربما جاءت الرسالةُ من صديقٍ مُعاتِب، فيردّ بردٍّ باردٍ سمجٍ، والواجب أنْ يكون الردّ على قدر وأهمية الرسالة.

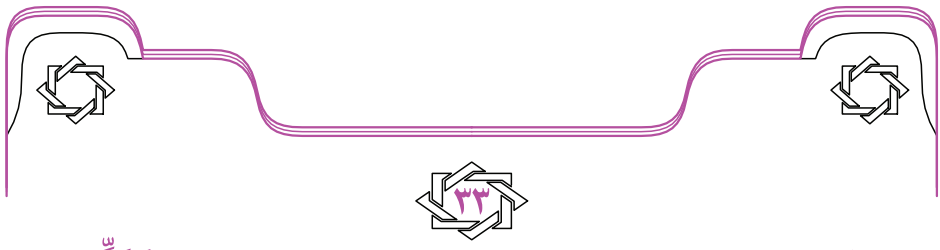

٣٣

أنْ تكون واضحًا معه، غيرَ مُتذبذبٍ ولا مُتَقَلِّبٍ

كثيرًا ما يُعاني الصديق من صديقه كثرةَ تقلُّباتِه، وسرعة تغيره، وعدم وضوحه، «فمودَّتُه مُتَنَقِّلَةٌ كَتَنَقُّلِ الأَفْيَاء[١]، وأُخُوَّتُه مُتَلَوِّنَةٌ كَتَلَوُّنِ الْحِرْبَاء»[٢] فليستْ سجاياه واحدة، وليست أخلاقة ثابتة، بل هو كما قال الشاعر[٣]:

أرى فيك أخلاقًا حسانًا قبيحةً ... وأنتَ صديقٌ كالذي أنا واصفُ
قريبٌ، بعيدٌ، أبلهٌ، ذوُ فطانةٍ ... سخيٌّ، بخيلٌ، مستقيمٌ، مخالفُ
كذاك لساني شاتمٌ لك مادحٌ ... كما أنَّ قلبي جاهلٌ بك عارف
تلوَّنتَ حتى لستُ أدري من العمى ... أريحٌ جنوبٌ أنتَ أم أنتَ عاصفُ

مثل هذا الصديق من الصعب التعامل معه، والتنبُّؤُ بردَّاتِ فعله، فيومًا يكون سعيدًا ويومًا يكون تعيسًا، ومرةً لا يتقبل المزاح، ويومًا يُسرف في المزاح إلى حدّ الملال، وحينًا يُكثر الزيارة، وحينًا يُطيل القطيعة.

طَورًا يُبادلني الصفاءَ وتارةً ... ألقاه يُنكرني مِن البغضاءِ

(١) الأفياء: جمع فيء، وهو الظل، والظل سريعٌ تنقلُّه وتحوُّله.
(٢) الحِرْباءُ: دُوَيْبَة من فصيلة الزواحف، ذات قوائمَ أربع، تستقبل الشمسَ نهارَها وتدور معها كيف دارَت، وتتلوّن ألوانًا، ويُضربُ بها المثل في التلّون والتقلُّب.
(٣) الصداقةُ والصديق، ص٢٥٦.

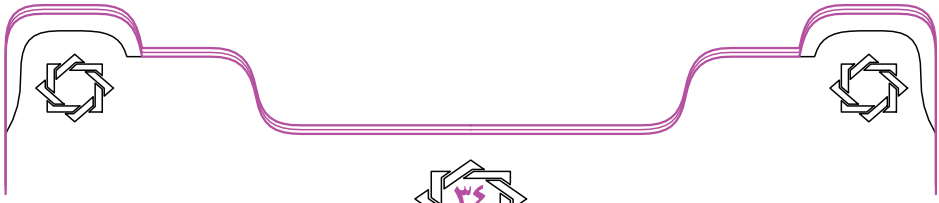

٣٤

مُساعدتُه وعدمُ التَّواني في خدمته عند الحاجة

بعض الأصدقاء يُحب أنْ يُخدَم دائمًا، ويميل للكسل والخمول، بل ربما كان هو وأصحابه في نزهة أو سفرٍ فيراهم يعملون ويَنْشطون في إصلاح غداءٍ أو تهيئةِ مكانٍ للجلوس، أو الاستعداد للرحيل، فلا يُحرك ساكنًا!.

ساعدْ صديقك في أمرٍ يحاولهُ فالحرُّ للحرّ مِعوانٌ على الزَّمنِ

الكسل والخمول من الصفات الرديئةِ خاصةً بين الأصدقاء، وينبغي لمن يجد في نفسه هذه الصفة أنْ يُجاهد نفسه على النشاط والمساعدة.

والصديق قد يحتمل خمول وكسل صديقه أحيانًا، لكنه لن يحتمل أنْ يتعب هو في العمل، ويجتهد في الشغل، وصاحبه مُستغرقٌ في نومه، أو يتقلب في فراشه، أو يلهو في جواله.

وأخيْ أنتَ ولا تنفعني لا أخَا للمرء إلا من نفعْ

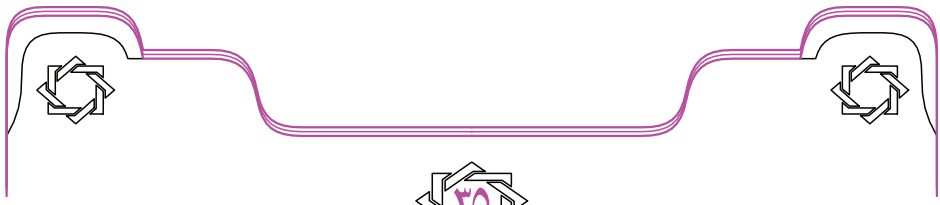

٣٥

ألا تُرهقَه بأشغالك وحاجاتك

بعضُ الأصدقاء يظنُّ أنْ الصديق كالخادم، يُطلَب منه كلّ شيء، ويُكلَّف بالأشغال والحاجات الشاقة والكثيرة!.

مَن عفَّ خفّ على الصديق لقاؤهُ وأخو الحوائج وجْهُه مملولُ

ومِن أشنع ما يكون في الصاحب: ألا يتصل بك أو يزورَك إلا لحاجة، وبعضُهم يتصل بعد أشهرٍ عدَّة فيقول: اتصلتُ للسلام والاطمئنان عليك، فتفرحُ بذلك وتشكره، ثم يقول بعد ذلك: يا فلان عندي حاجةٌ أو اسْتفسار!.

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا يجب للمرءِ أن يُكثر على إخوانه الْمَؤُونات فَيُبْرِمَهم؛ لأنَّ الرَّضيعَ إذا كثُر مصُّه ربما ضَجِرَتْ أمُّه فتلقيه. ا. هـ[1].

وبعضُ الأصدقاءِ يغضبُ أو يحمِلُ في خاطره إنْ أخبرتَه بعدم قدرتك على قضاء حاجته، أو تلبيةِ طلبه، وربما هجرك بعد ذلك، أو ثقُلتْ نفسُه عليك، والذي لا يُقدِّر الأصدقاء ولا يلتمس لهمُ الأعذار فهو في نكدٍ وهمٍّ.

(١) روضة العقلاء، ص٩١.

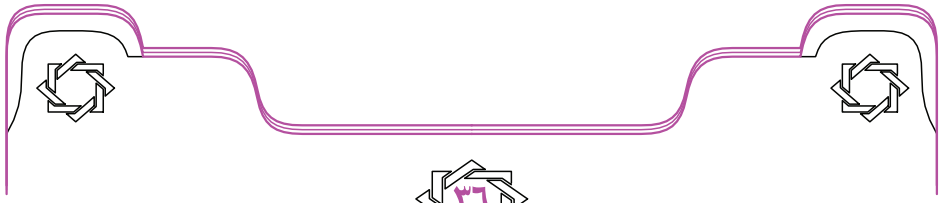

٣٦

الدّقةُ في الوعْدِ والْمَوَاعيدِ

ما أكثر ما يستهين كثيرٌ من الأصدقاء في وُعُودِهم ومواعيدهم، بحجة أنَّه صديقه، والصديق أمره سهل، ونحو ذلك من التبريرات الساذجة.

أليس الصديقُ أحقَّ بأنْ يُعتنى به، أليس الصديق أحقَّ بأنْ يُحترَم، وتُحتَرمَ مواعيده؟

خيرُ الصَّديق مَنِ الصَّدوقُ مَقَالُه ... وكذاك شرُّهمُ الْمَنُون[1] الأَكْذَبُ
فإذا غدوتَ لـه تُـريـد نِـجَـازهُ ... بالوعد راَغَ كمَا يَرُوغ الثَّعْلَبُ

بعضُهم يتَّفِقُ مع صديقه على موعدٍ في الساعة الفلانية، فيتأخر بعدها بعشر دقائق أو أكثر، وصديقُه على أحرّ من الجمر ينتظره، وحينما يحضر كأنَّ شيئًا لم يكن!.

وبعضُهم يعِدك بأمرٍ أو قضاء حاجةٍ ثم يُماطل ويُؤخِّر، ويتساهلُ ويتعذَّر!.

(١) المَنُونُ: صيغة مبالغة من مَنَّ؛ أي: كثير الْمَنّ.

٣٧

أنْ تَكون صادِقًا معه في حديثِك

الصدق ركنُ الأدب، وأصلُ المروءة، ودليل الثقةِ بالنفس، وعلامةٌ على الإخلاص والوضوح.

ومِنْ أقبح الصفات في الصديق: كذبُه على صديقه.

لا يكذب المرء إلا مِن مَهَانته أو فِعْله السُّوءِ أو مِنْ قلَّةِ الأدب

قال الله تعالى: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: ٢٨].

وقَالَ ﷺ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**». متفق عليه(١).

وقال أيضًا: «**إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**». متفق عليه(٢).

أيُّ خِزْيٍ وفضيحةٍ للكذَّاب، أنْ يُكتَبَ عند الله يوم الحساب بأنَّه كذَّابٌ، فيُنادى به ويُعاب.

---

(١) (٢٥٩٨)، ومسلم (٢٢٠).

(٢) (٦٠٩٤)، ومسلم (٦٨٠٥).

لو وصفَه أحدٌ بأنه كذَّابٌ لغضب وأنكر، فهل يُطيق نداء الله له بذلك؟.

لي حيلةٌ فيمن ينمّ ... وليس في الكذاب حيلة
من كان يَخْلُقُ ما يقول ... فحيلتي فيه قليلة

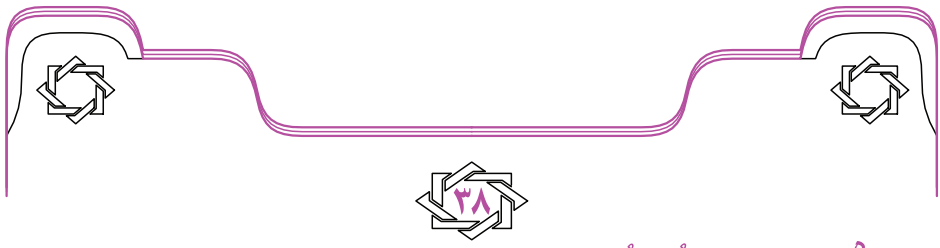

٣٨

إخْباره بما تُحبُّ وما تكره من الطباع والأخلاق

من أهم ما يحتاجه الصديق من صديقه أنْ يُخبره بما يُحبه وما يكرهه من الطباع والأخلاق وغيرها حتى يعملَ على القيام بها، ويتَجَنَّبَ ضدّها.

أمَّا أنْ تسكت ـ أيها الصديق ـ عن ذلك، فإنَّ صديقك قد يقترف ما يُكدر خاطرك، ويُضيِّق صدرك، ثم تلومه وتُعاتبه بعد ذلك، وأنت الْمُلامُ أولًا.

إذا كانت صورةُ الصديق عند صديقه واضحة، وانْكشف له ما يهواه صديقُه وما يُبغضه: كان ذلك سببًا كبيرًا في دوام الصحبة، وسلامتها ممَّا يُكدِّرها.

وتزداد أهمية ذلك إذا أرادوا سفرًا، وخاصةً إذا كانوا لأول مرةٍ يُسافرون، فإذا علم كلُّ واحدٍ ما يُحبه الآخر ويكرهه كان ذلك سببًا كبيرًا في توفيقهم في سفرهم، وتجنُّبهم ما يُكدرهم.

أحدُ الأصدقاء يُسافر كثيرًا مع صديقه لوحدهما، ويمكثون الأيام الطويلة، في قمة المتعة والتفاهم، فسُئل عن ذلك فقال: أولُ مرَّةٍ سافرتُ معه قال لي: يا فلان، أنا لم أُجرِّبك في سفر، فأخبرني بما تُحبه وما تكرهه، وأنا سأخبرك أيضًا!، يقول: فعرف كلُّ واحدٍ ما يُحبُّه الآخر

فأتى به، وما يكرهه فاجْتَنَبه، فكانت سَفْرتُنا من أمتع أيامنا، ولذا سافرنا لوحدنا بعدها مرارًا وتكرارًا.

وما أكثرَ الأصحاب الذين سافروا ثم قطعوا رحلتهم، وما أكثر الأصحاب الذين تقاطعوا وتنافروا بسبب عدم وضوح بعضهم مع بعض.

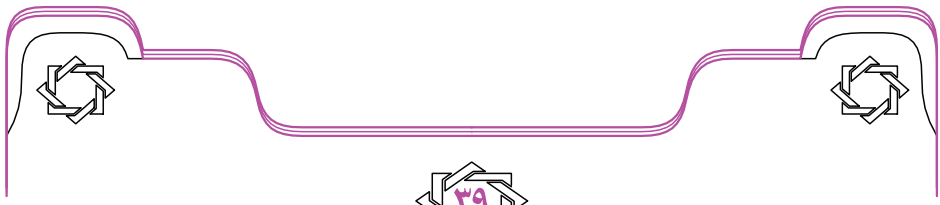

٣٩

مُداراةُ طَبْعِه، لا أنْ تلتزمَ بِطَبْعِك وتُلزمه بمُراعاتك

بعض الأصدقاء ليس مُستعِدًّا أنْ يُكلِّف نفسه تحمل بعض طِباع أصحابه، بل هو مُتمسِّكٌ بطِباعه وأخلاقه ولو كانت عوجاء، ثم يطلب منهم أنْ يحتملوه، فيقول: هذا طبعي، فلا بدّ أنْ تُراعوني!.

ومثل هذا قلَّ من يصفو له صديق، أو يدوم له رفيق.

قال بعضهم: لا إخاء لمن يُريد أنْ يَجمع هوى أخِلَّائه له حتى يُحِبُّوا ما أحبّ، ويكرهوا ما أكْره، وحتى لا يَرى منهم زللًا ولا خللًا[١].

(١) الصداقة والصديق، ص١٦٠.

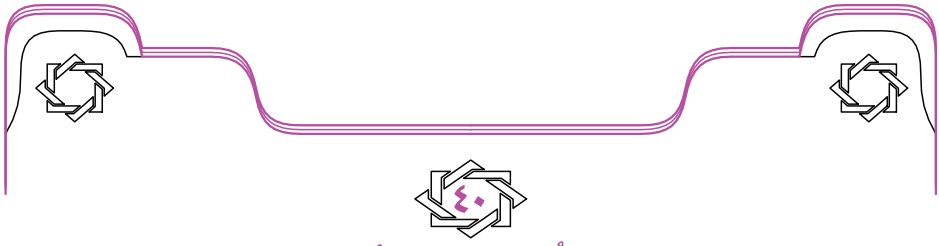

٤٠

اسْتِشارتُه والانتفاعُ برأيه

إنَّ مُشاورتك لصديقك له أثرٌ كبيرٌ في زرع الثقة في نفسه، وغرس المحبة في قلبه، حيث يشعر بأنك تُقدِّرُه وتحترمه، ويُحسّ بأنَّ قدرَه رفيعٌ عندك، وشأنَه عظيمٌ لديك.

شاورْ أخاك إذا نابَتْك نائبةٌ ... يومًا وإن كنت من أهل المشورات

فالعين تُبصر منها مادنى ونأى ... ولا ترى نفسَها إلا بمرآةِ

والعيب الذي في عينك لا تستطيع رؤْيتَه إلا بمرآة، والأصدقاءُ هم مرآتك.

والاستشارةُ لا يستغني عنها أحدٌ مهما كان ذكاؤه وعلمه، وهذا ربنا جلَّ وعلا يأمر نبيه ﷺ بأن يستشير أصحابه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فإذا كان النبي ﷺ قد أمره الله تعالى باستشارة أصحابه، وهو الملهم الْمُوحى إليه، فكيف بغيره؟.

والمشورةُ هي ديدَنُ الحكماء والعقلاء، ولا يَستغني عنها الكبراءُ والفضلاء.

فهذا عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ استشار في قوم يستعملهم، فقال له بعض أصحابه: عليك بأهل العُذْر. قال: ومن هم؟ قال: الذين إن عدلوا

فهو ما رجوتَ منهم، وإن قصَّروا قال الناس: قد اجتهد عمر[١].

فانظر إلى نتيجة المشورة: هذه الحكمة البليغة.

ولا يَعْدم مَن استشار خيرًا ونفعًا، ومكانةً وفضلًا.

قال أعرابي: ما غُبِنْتُ قط حتى يُغبَن قومي. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا أفعل شيئًا حتى أشاورهم[٢].

الرأيُ كالليلِ مُسْودٌ جوانبُهُ والليلُ لا ينجليْ إلا بإصباحِ
فاضممْ مصابيحَ آراءِ الصِّحابِ إلى مِصباحِ رأيِكَ تزددْ ضوءَ مصباحِ

ومن أعظم ما تجنيه إذا اسْتشرتهم: رفعُ اللوم عنك لو أخطأت.

فإنْ هلكتَ برأيٍ أو ظفرتَ به فأنت عند ذوي الألباب معذور

وتتحتَّم استشارتُك لصديقك إذا كان في أمرٍ يشترك هو معك، فمن الأنانية أنْ تستبدّ برأيك.

وبعضُ الأصدقاء شديدُ التمسك برأيه، والإعجاب بأفكاره، بل ويُكثرُ من إبداءِ وعرضِ آرائه، ويُشير على أصدقائه دون أنْ يأخذ منهم، ودون مُراعاةٍ لخاطرهم، ودون اهتمامٍ لآرائهم.

فيتحتَّم على الصديق اللبيب أنْ يَقبل رأي صديقه أحيانًا ولو لم يكن صوابًا خالصًا، حتى يطيبَ خاطرُه، وتنشرحَ نفسُه.

(١) عيون الأخبار ١/ ٦٠.
(٢) عيون الأخبار ١/ ٧٣.

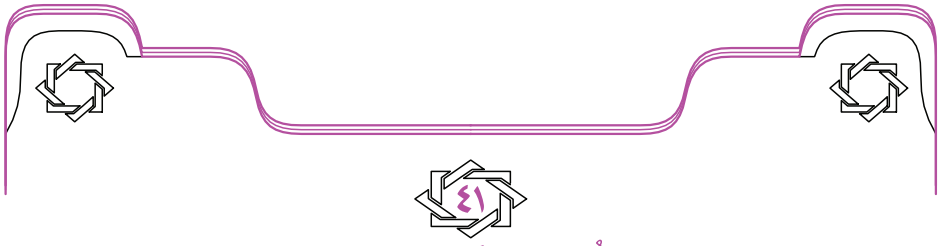

٤١

عدمُ التدخل في خُصوصيَّاتِه وتقصِّي دقائِقَ حياته

الصداقةُ الخالصةُ، والمحبةُ الْمُتبادَلَةُ بين الصديقين، لا تعني أنْ يطلبَ أحدُهم ما لا يخصُّه وينفعه أو ينفع صديقه.

وقد قَالَ ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»[(١)].

فكلُّ أحدٍ له خُصوصيَّاتٌ لا يرضى لأحدٍ بأن يطَّلع عليها، أو يُدخل نفسه فيها.

وبعضُ الأصدقاء لا يَهْنَأُ له بال، ولا يقرُّ له قرارٌ حتَّى يعلم عن تفاصيل حياةِ صديقِه، ويعلمَ أينْ ذَهَبَ، ومع مَن ذَهَبَ!.

وبعضُهم ربما اعتدى على حاجيَّات صاحبه، كأنْ يأخذ سيارتَه دون علمه، أو يدخلَ مزرعتَه أو بيته دون سابق علمٍ أو إذن.

ولو علموا أنَّ راحةَ البال في عدم التدخل في خصوصيَّاتِ الآخرين، والتنقيبِ عن أسرارهم، لَمَا شغلوا أنفسهم بهذا الخلق الذميم.

وما أجمل ما قاله أحدُ السلف رَحِمَهُ اللَّهُ: الْحَزْمُ حِفْظُ ما كُلِّفْتَ، وَتَرْكُ ما كُفِيتَ[(٢)].

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته (٥٩١١).

(٢) مجمع الأمثال (١٠٨٧).

نعم، الحزمُ والعقل أنْ تَحفَظ ما كُلِّفْتَ به وأُسند إليك، وَتَتْرُكَ وتدع ما كُفِيتَ.

قال عُمَر بْن الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «بِحَسْبِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْغَيِّ، أَنْ يُؤْذِيَ جَلِيسَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ»[(١)].

نعم! إنَّ تدخُّل الصديقِ في شيء لا يعنيه، وليس من واجباته وحقوقه: لهو غيٌّ وعُدوان، حيث بغى واعتدى على حقوق الآخرين ووخصُوصيَّاتِهِم.

وهل يرضى أحدنا أن يتدخَّل أحدٌ في أمورنا وخصُوصيَّاتنا؟ وما موقفنا لو تصرَّف أحدٌ من الناس في مقرّ عملنا، وصميمِ شُغلنا بدون إذننا ورأينا؟

(١) شعب الإيمان (٤٦٤٢).

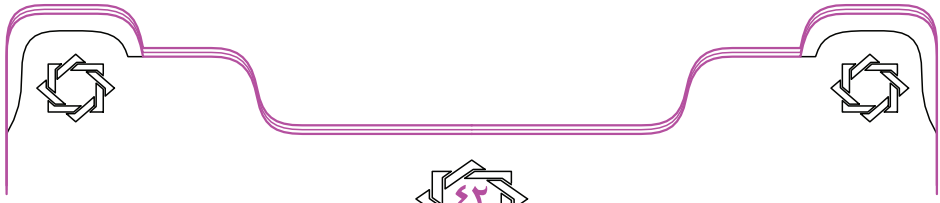

٤٢

السؤالُ عن حاله بإخلاص

الصديق الوفيّ هو الذي يَهْتمّ بصديقه وبما يتعلَّق به، ويهتمّ بأهله وأولاده، ويسأل عن أمور دينِه ودُنْياه.

إنَّه حينما يسمع الصديقُ كلَّ هذا الاهتمام من صديقه سيَدخلُ السرورُ قلبَه، وتعلو البهجةُ فُؤادَه، وسيشعرُ بمحبةٍ وإكبارٍ له.

وقد كان قُدْوتنا ﷺ يسأل أصحابه عن أدقّ التفاصيل، ويسأل الأعزب منهم هل تزوج أم لا، ويسأل أبا بكرٍ وعمر رضي الله عنهما حينما أحضرا مالهما صدقةً لله: ماذا أبقيتَ لأهلك![١].

بل كان يسأل الأطفالَ أيضًا!، فها هو يسأل طفلًا صغيرًا عن طيرٍ له، فحينما زار أهله سأله بكلّ أدبٍ وعناية: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ»[٢]. وَهُوَ طَيْرٌ صَغِير.

تأملْ كيف تفقد هذا الطير، وكيف سأل عن أدق التفاصيل، وهي في نظر الكثير يُعتبر تافهًا، فهذا من اهتمامه وشعوره بالآخرين.

كم قابلْنا أُناسًا تربِطُنا معهم صداقةٌ قديمةٌ عريقةٌ فلم نسألهم عن همومهم وحياتهم، فشتان بَيْنَنَا وبين المربي العظيمِ ﷺ.

---

(١) أبو داود (١٦٧٨).

(٢) البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).

والبعضُ يسأل صديقه بأسلوبٍ باردٍ، ودون اهتمامٍ وعناية.

وبعضُهم يُكرر السؤال مرارًا، فيسأله: كيف حالك، ثم بعد شيءٍ من الكلام يُكرر السؤال نفسه!.

وهذا يدلّ على أن سؤالَه مُجردُ عادةٍ، لا محبةٍ في الاطمئنان عليه وعلى حاله.

يقول الأديب الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «كنت مرة خارجًا من المستشفى، بعد عملية جراحية، لا أزال أقاسي آلامها، فلقيني صديق لي فقال: كيف الصحة؟.

فظننته يسأل عنها حقيقة ورحت أشرح له ما بي وأصور ما أجد وتكلمت خمس دقائق بمقدار حديثي في الإذاعة ـ على مائدة الإفطار ـ في رمضان فلما انتهيت سكتُّ ونظرتُ إليه، أسمع منه، فقال: كيف الصحة إن شاء الله بخير.

وإذا به لم يسمع من شرحي وبياني شيئًا».ا.هـ.

(١) في مقالة نشرت سنة ١٩٥٦م في مجلة الإذاعة.

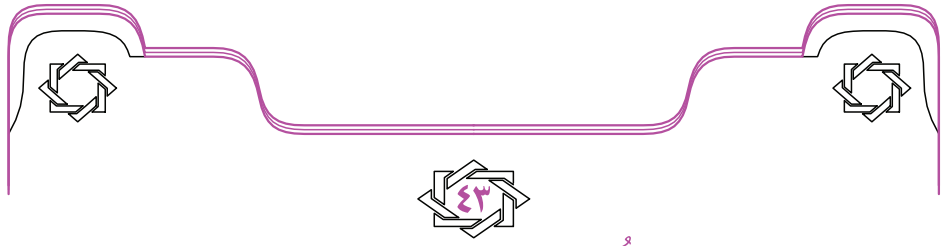

٤٣

الدُّعاءُ له بظهر الغيب

الدعاءُ للصديق هو من أعظم الأدلة على محبته له لله، لا لدُنيا ولا لمصلحةٍ، وخلُوصِ قلبه من الحسد والغلّ.

فما أعظم أثره، وما أقلّ فاعله.

أليس من حق الصديق الذي بذل وقتًا ومالًا لصديقه أنْ يدعو له في ظهر الغيب! بلى.

واعلم أنك إنْ دعوتَ له سيُدعى لك! قال ﷺ: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ**»[(١)].

وستجدُ لذَّةً عجيبةً لذلك، وستُحسّ بقوَّةِ انتمائك له، ومحبّةِ الخير له.

يقول أحدُ الأصدقاء ـ وفقه الله ـ أنا أدعو لكلِّ أصدقائي وأحْبَابِي ومَنْ له حقٌّ عليّ كثيرًا، وأَسْتغرب ممَّن يقول لصاحبه: لا تنسني مِن دُعائك، فهل يَنْسَى الصديقُ الدعاءَ لصديقه!.

(١) رواه مسلم (٢٧٣٣).

الختام

هذه هي أبرز وأهم حقوق الصديق على صديقه، وأعظم الآداب التي ينبغي أنْ تُؤدَّى له.

فلْيفتش كلُّ صديقٍ عن صديقه، فإنْ رأى فيه أخلاقًا وصفاتٍ حسنة، فلْيحمد الله، وإن رأى فيه خلاف ذلك: فلْيحرصْ على إصلاحه ونُصحه بالأسلوب الأجمل، والطريق الأكمل، فإنْ كانت أخطاؤه تربو على حسناته، وزلاتُه كثيرةً فاحشة، أو كان لا نفع فيه دُنيا ولا دين، فينبغي تجنُّبُه والبحثُ عن غيرِه.

فالصّديقُ الذي لا يقبل من صديقه نقدًا بنَّاءً، ولا يلتمس له الأعذار، ولا يقف معه وقت الضيقِ والإعسار، ولا يحتمل منه مزاحًا، ولا يعرفه إلا وقت الحاجة: لا ينبغي أنْ تُهدرَ الأوقاتُ لأجله، وتُبْذلَ الأموال تطييبًا لخاطره، وهو لا يزيدك إلا مرضًا وهمًّا، وضِيقًا وغمًّا.

هذه هي حقوق الصديق، وهي كثيرةٌ جدًّا، فالصداقةُ كما تقدم ليست بالأمر الهيّن، ولْيسأل كلّ واحدٍ منَّا هل قام بهذه الحقوق مع صديقه على أتمّ وجه؟، هل أصدقاؤُه يقومون بها أو بأكثرها؟.

فلْيُرتب الصديقُ أوراقه، ولْيعرف من هو الصديق الوفيّ، مِن الصديق الْمُزيَّفْ.

* * *

وهذا ما تيسر إملاؤه من خواطر قديمةٍ وحديثة فيما يتعلق بالصديق من حقوق وآدابٍ، علَّها أنْ تكونَ سببًا في إصلاح حال الكثير من

الأصدقاء، وأنْ تكون سراجًا مُنيرًا في دوام وصالهم، وقوة علاقاتهم، وصفاء ودادهم.

❊ ❊ ❊

تم في يوم الأحد ٧ ـ ١٠ ـ ١٤٣٥هـ

أسأل الله تعالى أنْ ينفع به، ويجعله مُباركًا بكرمه وجوده إنه أكرم الأكرمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسوله وآله وصحبه أجمعين.

المراجع

١ ـ **القرآن الكريم**.

التفسير:

٢ ـ **تفسير القرآن العظيم**: لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة.

٣ ـ **تفسير المنار**: لمحمد رشيد رضا، تحقيق: فؤاد سرج عبد الغفار، طباعة: المكتبة التوفيقية.

٤ ـ **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**: للعلامة: عبد الرحمٰن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبد الرحمٰن بن معلا اللويحق، طباعة: مؤسسة الرسالة.

الحديث:

٥ ـ **صحيح البخاري**.

٦ ـ **صحيح مسلم**.

٧ ـ **جامع الترمذي**.

٨ ـ **سنن أبي داود**.

٩ ـ **سنن ابن ماجه**.

١٠ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة.

١١ ـ **المستدرك على الصحيحين**: لأبي عبد الله الحاكم.

١٢ ـ **الزهد**: للإمام أحمد، تحقيق: الشيخ يحيى الأزهري، طبع: دار ابن رجب.

١٣ ـ **مسند أبي يعلى**: الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، تحقيق: حسين سليم أسد.

١٤ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**: لمحمد ناصر الدين الألباني، دار النشر: المكتب الإسلامي.

١٥ ـ **السلسلة الصحيحة الكاملة**: لمحمد ناصر الدين الألباني.

١٦ ـ **السلسلة الصحيحة المختصرة**: لمحمد ناصر الدين الألباني.
١٧ ـ **كتاب السُّنَّة**: لأبي بكر الخَلَّال الحنبلي (المتوفى: ٣١١هـ)، تحقيق: عطية بن عتيق الزهراني، طباعة: دار الراية، الرياض.
١٨ ـ **شعب الإيمان**: للبيهقي، حقَّقه وراجع نصوصه وخرَّج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض.
١٩ ـ **صحيح الأدب المفرد**: للألباني.
٢٠ ـ **صحيح الجامع الصغير وزياداته**: للألباني.

شروح الأحاديث:

٢١ ـ **فتح الباري**: لابن حجر العسقلاني، المحقق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، الناشر: دار السلام.
٢٢ ـ **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**: لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، طباعة: دار إحياء التراث العربي.
٢٣ ـ **جامع العلوم والحكم**: لابن رجب، تحقيق: معروف زريق، طباعة: دار الجيل.
٢٤ ـ **دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين**: لابن علان الصديقي.

اللغة:

٢٥ ـ **مقاييس اللغة**: لابن فارس، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، طباعة: دار الفكر.
٢٦ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**: تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، طباعة: المكتبة العلمية.
٢٧ ـ **تهذيب اللغة**: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، طباعة: دار إحياء التراث العربي.
٢٨ ـ **المعجم الوسيط**: تأليف: إبراهيم مصطفى،أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، طباعة: دار الدعوة.

البلاغة والأدب:

٢٩ ـ **دلائل الإعجاز**: للجرجاني، تحقيق: محمد رضوان الداية وفايز الداية، طباعة: دار الفكر.
٣٠ ـ **الصداقة والصديق**: لأبي حيان التوحيدي.

٣١ ـ **روضة العقلاء ونزهةُ الفضلاء**: للإمام أبي حاتم ابن حبان، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، طباعة: المكتبة العصرية.

٣٢ ـ **عيون الأخبار**: لابن قتيبة، تحقيق: د. محمد الإسكندراني، طبع: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.

٣٣ ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب ـ موافق للمطبوع**: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، طباعة: دار الكتب العلمية، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة.

٣٤ ـ **التذكرة الحمدونية**: لابن حمدون، مصدر الكتاب: موقع الوراق.

٣٥ ـ **محاضرات الأدباء**: للراغب الأصفهاني، مصدر الكتاب: موقع الوراق.

٣٦ ـ **الزهرة**: لابن داود الأصبهاني.

٣٧ ـ **كنوز المروءة في الصداقة والأخوة**: لشعبان جبريل.

٣٨ ـ **بهجة المجالس وأنس المجالس**: لابن عبد البر، مصدر الكتاب: موقع الوراق.

الأمثال:

٣٩ ـ **السحر الحلال في الحكم والأمثال**: لأحمد الهاشمي، طباعة: دار الكتب العلمية.

٤٠ ـ **جمهرة الأمثال**: لأبي الهلال العسكري، طباعة: دار الفكر.

٤١ ـ **مجمع الأمثال**: لأبي الفضل النيسابوري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طباعة: دار.

السِّير والتراجم:

٤٢ ـ **تهذيب سير أعلام النبلاء**: للدكتور: محمد موسى الشريف، طبع: دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع.

٤٣ ـ **تهذيب حلية الأولياء**: للشيخ: صالح الشامي، طبع: دار القلم، الدار الشامية.

٤٤ ـ **صفة الصفوة**: لابن الجوزي، تحقيق الشيخ عبد الرحمٰن اللاذقي، والشيخ حياة شيحا اللاذقي، طبع: دار المعرفة.

٤٥ ـ **الأعلام**: لخير الدين الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، طباعة: دار العلم للملايين.

التاريخ:

٤٦ ـ **المنتظم**: لابن الجوزي، تحقيق: الشيخ محمد عبد القادر عطا، والشيخ مصطفى عبد القادر عطا، طبع: دار الكتب العلمية.

٤٧ ـ **البداية والنهاية**: لابن كثير، تحقيق: مجموعة من المشايخ، تحت إشراف فضيلة الشيخ مصطفى العدوي. طباعة: دار ابن رجب.

السلوك، والرقاق:

٤٨ ـ **مدارج السالكين**: لابن القيم، تحقيق: الشيخ عبد العزيز بن ناصر الجليل، طبع: دار طيبة.

٤٩ ـ **مفتاح دار السعادة**: لابن القيم. تحقيق: الشيخ علي بن حسن الحلبي، طبع: دار ابن القيم، دار ابن عفان.

٥٠ ـ **ذم الهوى**: لابن الجوزي، تحقيق: الشيخ خالد عبد اللطيف السبع العلمي، طباعة: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.

٥١ ـ **موسوعة الإمام ابن أبي الدنيا**: طبع: المكتبة العصرية، بيروت.

٥٢ ـ **إحياء علوم الدين**: لمحمد بن محمد الغزالي أبو حامد (توفي: ٥٠٥)، طباعة: دار المعرفة.

٥٣ ـ **حياة السلف بين القول والعمل**: لأحمد بن ناصر الطيار، الطبعة الثانية.

دواوين الشعر:

٥٤ ـ **ديوان أبي العلاء المعري**.

٥٥ ـ **ديوان بشار بن بُرد**.

٥٦ ـ **ديوان الشافعي**.

كتب أخرى:

٥٧ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**: لابن القيم، الناشر: مؤسسة الرسالة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط.

٥٨ ـ **صيد الخاطر**: لابن الجوزي، تحقيق: يوسف بديوي، طباعة: دار اليمامة.

٥٩ ـ **إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد**: للشيخ عبد العزيز بن محمد بن سلمان.

٦٠ ـ **جامع المسائل لشيخ الإسلام**: بإشراف بكر أبو زيد.

٦١ ـ **أحكام أهل الذمة**: لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المعروف بابن القيم، تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاكر توفيق العاروري، طباعة: رمادى للنشر، دار ابن حزم.

٦٢ ـ **رسائل ابن حزم الأندلسي**: تحقيق: إحسان عباس، طباعة: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٦٣ ـ **أدب الموعظة**: للشيخ محمد الحمد.

٦٤ ـ **مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين**: جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، الناشر: دار الوطن، دار الثريا.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
معنى كلمة الصديق في اللغة والاصطلاح	١١
الأصدقاء على ثلاث مراتب	١٦
أيهما أصعبُ: ابتداءُ الصداقة أم دوامُها؟	١٧
متى تحكم على أحدٍ أنه صديق؟	١٨
التحذيرُ من جلساء السوء	٢٢
فضل الأخوة والصحبة في الله، والإحسان إليهم	٢٥
كيفيَّةُ معرفة الحبِّ في الله من غيره	٢٩
هل الأفضل: الإكثار أو الإقلال من الأصحاب؟	٣١
قصص ومواقف في الإحسان إلى الأخ والصديق	٣٣
حقوق الصديق الْواجبةِ والْمُستحبةِ على صديقه	٣٨
الأول: «الوقوف معه وقت الضيق»	٣٩
الثاني: «عدمُ الْبُخل عليه بمالك أو جاهك»	٤١
الثالث: «مُعاملته بالاحترام والأدب»	٤٥
الرابع: «الانبساطُ معه دون إفراطٍ ولا تفريط»	٤٨
الخامس: «ألا تنقل إليه ما يؤلم نفسه ولا ينتفع بمعرفته»	٥١
السادس: «الْتماس الأعذار له»	٥٢
السابع: «إحسان الظن به وبما يصدر منه من قول أو فعل»	٥٥
علاج سوء الظن	٦٠

الموضوع | الصفحة

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ ٦١
الثامن: «مُراعاةُ مشاعره في حال فرحه وترحه» ٦٣
التاسع: «زيارتُه بشرط عدم الإكثار» ٦٥
العاشر: «ألا تكثر عليه المزاح والهزْل» ٦٦
الحادي عشر: «ألا يُعاتبه على أمرٍ يتوجَّسُ منه دون غيره» ٧٢
الثاني عشر: «ألا يُبالغ في المحبة والرغبة، والكراهة والنفرة» ٧٤
تجربة ابن حزم ونصيحته في ذلك ٧٧
الثالث عشر: «عدمُ التكلُّف في كتمان الْمشاعر أو إبدائها» ٧٩
الرابع عشر: «الهديَّةُ بشرط عدمِ المبالغة والتكلف فيها» ٨٠
الخامس عشر: «نقدُه بأسلوبٍ لطيف» ٨٢
السادس عشر: «مُصارحَتُه بعيوبه بأسلوبٍ ليِّن، وتقبُّله لذلك» ٨٦
السابع عشر: «الثناءُ الصادقُ عليه، ودعمُه وتشجيعُه وشُكرُه» ٩١
الثامن عشر: «اسْتعمال الحكمة والرفق عند سوء التفاهم» ٩٤
التاسع عشر: «الحلم، وكتمان غيظه وغضبه» ٩٦
العشرون: «عدمُ عتابه بقسوة، والإقلالُ منه إنْ كان بلطف» ٩٩
الحادي والعشرون: «الصبرُ عليه، وسترُ عيوبه، والعفو والصفح عنه» ١٠٣
الموقف السليم مع الصديق القاطع أو الْمُجافي ١٠٨
نصيحة لمن هجر وقطع صديقه أو قريبه ١١٠
متى تُسْتَعْمَلُ الشدةُ مع زلَّات الأصدقاءِ وغيرهم؟ ١١٥
الثاني والعشرون: «الإصلاحُ والسعيُ في تأليفِ القلوب» ١٢٠
الثالث والعشرون: «الاعتذار إليه واسْتِعْطَافُه عند خطئك وتقصيرك» ١٢٢
الرابع والعشرون: «عدمُ مُجاملته، ومراعاةِ مشاعره دائمًا» ١٢٤
الخامس والعشرون: «ألا يستمع للنمام، وأنْ يُلْجمه ويُدافعَ عن صديقه» ١٢٧
السادس والعشرون: «أنْ تحفظ أسراره، وتكتم ما طلب منك كتمانه» ١٣١

الموضوع | الصفحة

السابع والعشرون: «مُخاطَبَتُه بألطف العبارات، وإخباره بمشاعرك» ١٣٢
الثامن والعشرون: «مُداراة مَن في طبعه حدَّةٌ أو عيبٌ» ١٣٤
التاسع والعشرون: «ألا تُجادله إلا بالحسنى» ١٣٨
الثلاثون: «ألا تَحْسِدَهُ على خيرٍ أُعْطِيَه، أو فضلٍ اكْتَسَبَهُ» ١٤٣
الحادي والثلاثون: «البشاشةُ وطلاقة الوجه له» ١٤٥
الثاني والثلاثون: «أنْ تردّ عليه جوابًا إذا راسلك أو كاتبك» ١٤٦
الثالث والثلاثون: «أنْ تكون واضحًا معه، غيرَ مُتذبذبٍ ولا مُتقلِّبٍ» ١٤٧
الرابع والثلاثون: «مُساعدتُه وعدمُ التَّواني خدمته في عند الحاجة» ١٤٨
الخامس والثلاثون: «ألا تُرهقَه بأشغالك وحاجاتك» ١٤٩
السادس والثلاثون: «الدّقةُ في الوعْدِ والْمَوَاعيدِ» ١٥٠
السابع والثلاثون: «أنْ تَكون صْادِقًا معه في حديثِك» ١٥١
الثامن والثلاثون: «إخْباره بما تُحبُّ وما تكره من الطباع والأخلاق» ١٥٣
التاسع والثلاثون: «مُداراةُ طَبْعِه، لا أنْ تلتزمَ بِطَبْعِك وتُلزمه بمُراعاتك» ١٥٥
الحقُّ الأربعون: «اسْتِشارتُه والانتفاعُ برأيه» ١٥٦
الحادي والأربعون: «عدمُ التدخل في خُصوصيَّاتِه وتقصِّي دقائِقَ حياته» ١٥٨
الثاني والأربعون: «السؤالُ عن حاله بإخلاص» ١٦٠
الثالث والأربعون: «الدُّعاءُ له بظهر الغيب» ١٦٢
الخاتمة ١٦٣
المراجع ١٦٥
الفهرس ١٧١

الموضوع الصفحة